هـ. ج. ويلز

رحله في دنيا المستقبل

تقديم

أندريه موروا

ترجمة

د. نظمي لوقا

الكتاب: رحله في دنيا المستقبل

الكاتب: هـ. ج. ويلز

تقديم: أندريه موروا

ترجمة: د. نظمي لوقا

الطبعة: ٢٠٢٣

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

ويلز، هـ. ج.

رحله في دنيا المستقبل / هـ. ج. ويلز، تقديم/ أندريه موروا، ترجمة/ د. نظمي لوقا

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

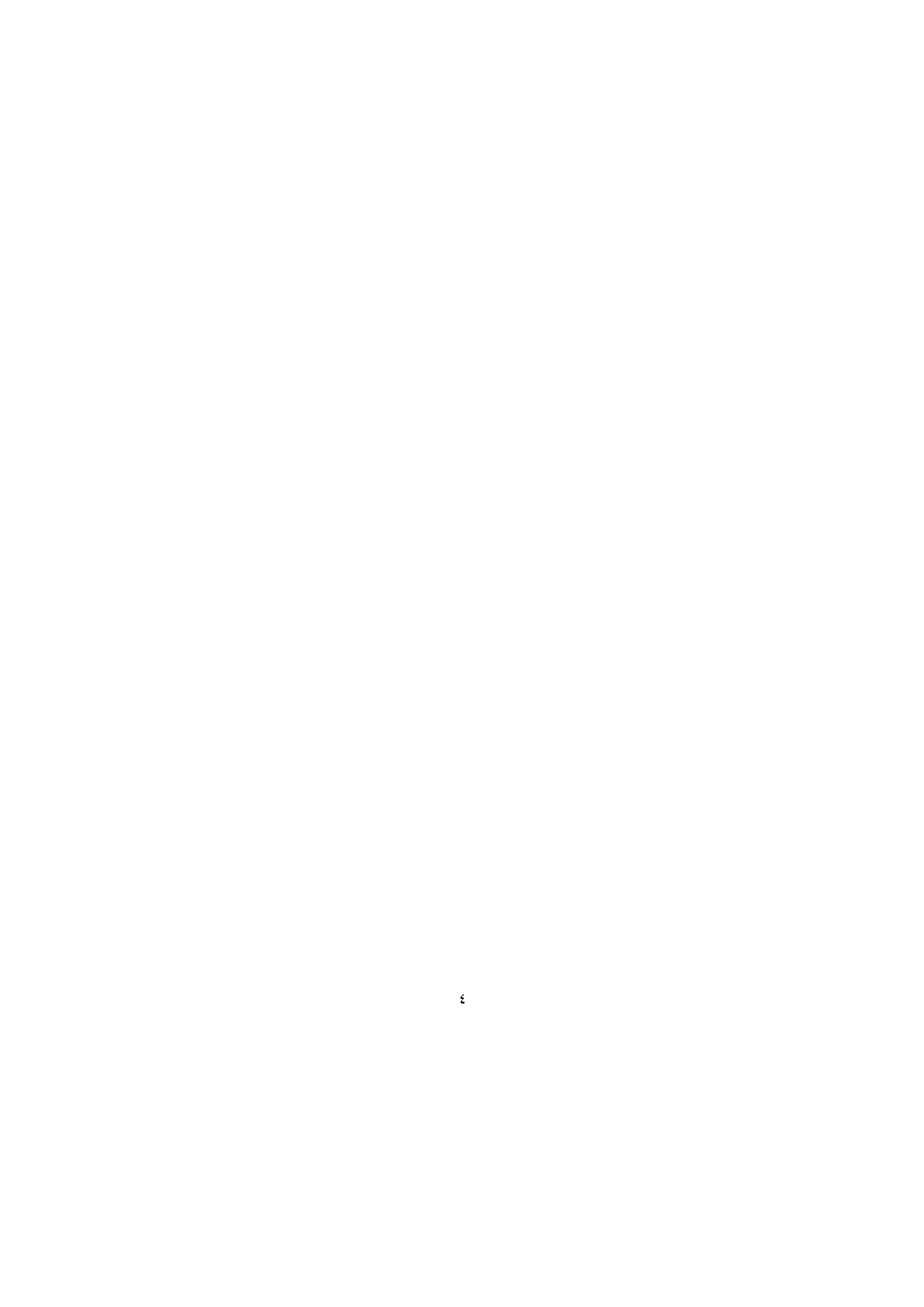
١٩٠ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٢ – ٧١٢ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٧٧٢٧ / ٢٠٢٣

رحله في دنيا المستقبل





تقديم

بقلم الكاتب الفرنسي / أندريه موروا

لا يستقيم الأمر لأصحاب النبوة في جميع الأزمان، ولا في جميع المواضع على السواء.. فالعهد بأوقات الاستقرار التي تسود فيها الثقة لا تحتاج إلى الأنبياء، وإنما تكون الحاجة إلى الأنبياء في عهود القلق والاضطراب ففي تلك العهود تتميع القيم، لأنها لم تعد صالحة لهداية الناس، فيشتد الشعور عندئذ بالحاجة إلى نمط جديد أو إلى تنظيم جديد يصوغ عالمًا أفضل.

وقد بلغت الحضارة الغربية عصر القلق بعد أن بلغ التصنيع ذروة التقدم، وأوشك العلم بمبتكراته المذهلة وإمكاناته الجبارة أن يفتح في حياة الناس صفحة جديدة لا عهد لهم بها من قبل.

ولهذا السبب صارت حاجة الحضارة الأوربية شديدة إلى ضرب من ضروب الأنبياء تنفق رسالته من حيث المضمون والشكل مع عصر العلم الذي بزغ فجره..

وكان "هربرت جورج ويلز" هو الرجل الذي أعدته الأقدار ليكون ذلك البشير النذير بين يدي جنس من البشر، أزاغت الأضواء القوية عينيه وأدارت رأسه..

وهربرت جورج ويلز– بحكم تكوينه العلمي، وبمدد من خياله الخصب، وبسند من حبه للإنسانية ومن روحه الفنية– أصلح الناس لاستبصار ذلك المستقبل، والدعوة له بلسان العقل وبلسان العلم.. سواء علم الطبيعة أو علم النفس.

* * *

وأيًا كان الرأي فيما دعا إليه من علاج لأضواء الحضارة الحديثة، فمما لا شك فيه أن رؤيته العلمية التي صاغها في قالب قصصي شائق أنارت الطريق أمام جيلين على الأقل من القراء الواعين في آفاق الأرض.. وأن تفكيره الاجتماعي التقدمي استولى على ألباب جيلين على الأقل من المعنيين بالتقدم الإنساني ومن المهتمين بالعدالة الاجتماعية، والإصلاح الاجتماعي على وجه العموم.

وقد ظل ويلز قرابة ثلث قرن صاحب هيمنة عقلية في أوربا وأمريكا، تضارع في علو المكانة واتساع النفوذ ما كان يتمتع به فولتير في القرن الثامن عشر.. حتى لقد حق له أن يقول بأعلى صوته في عصر الحق الإلهي الملوك:

– لا يضيرني إلا يكون فوق رأسي تاج، وفي يدي هذا "القلم"!!

فقد كان صوت ويلز مسموعًا ومحترمًا من الجميع، فاستزاره أقطاب الأرض في المعسكرين الشرقي والغربي. استزاره ستالين كما استزاره روز فلت، وناقشاه في أحوال العالم ومشكلاته مناقشة الند للند، لأنهما يعلمان

أن له من السلطان على العقول ما يضارع على الأقل سلطانهما على الجيوش والحكومات.. وكم من مرة تزلزلت أقواله عصبة الأمم العتيدة، وهو يوجه إليها النصح أو أضف إلى السلة يوبخها على التقصير في خدمة قضية السلام وصيانة مستقبل الحضارة البشرية.

إن الحقيقة التي لا مراء فيها، أن كلمات هربرت جورج ويلز كان لها على الدوام وألا يقل عن وزن تلك النذر التي كانت تنزل على الناس من آفاق فوق آفاق البشرية. ولذا جنح في العشرين عامًا الأخيرة من عمره إلى الإرشاد الصريح السافر متخليًا في شيخوخته من الأسلوب القصصي؛ مستخدمًا أسلوبًا شبه ديني.. كان الناس يتقبلونه بخشوع شبه ديني كذلك!

وهو في كتاباته جاد العقل، وإن لم يكن على الدوام جاد الأسلوب.. بيد أن الدعابة التي تشوب أسلوبه ولا سيما في قصصه العامي لا تخدع القارئ. فما من أحد يمكن أن يأخذ كتاباته على غير مكتمل الجد، فأدبة العلمي من ذلك النوع المضيء الذي يفتح الآفات أمام العقل والقلب.. وإن لم يسلم الإنسان على الدوام بكل ما يذهب إليه ذلك العالم الفيلسوف الذي خرج على الناس في أزمة الحضارة متخذًا مسموح الأنبياء.

* * *

ولعل امتياز هربرت جورج ويلز يكمن في مزج العلم بالأدب، وفتح عيون الناس عن طريق ذلك اللون من القصص الذي ابتكره كي يدركوا

حقيقة وجودهم وأسرار عالمهم وحياتهم ومدى ما يطرأ على ذلك كله من اختلاف هائل.. قد يصل الى حد الفناء المطلق لو أن ذرة واحدة من عناصر تلك القوانين الكونية عبثت بها يد عابث.

وهذا هو سر افتتان الناس بأدبه العلمي الذي ابتدعه.. وهو أدب يختلف تمامًا عن أدب علمي اشتهر به كاتب فرنسي اسمه جول فيرن.. فيان لا جولي فيرن يستخدم حقائق العلم ليلى الناس بمغامرات مدهشة فهو يجعل حقائق العلم في خدمة الأدب والتسلية.. ويجعل نبوءاته العلمية بالطيران وغزو القمر مطية لإمتاع القراء. أما هربرت جورج ويلز فيسخر الأدب والمتعة القصصية والتشويق لخدمة الثقافة العلمية، وتبصير الناس بالهاوية التي يمكن أن يترددوا فيها.. وبشير عليهم بطريق النجاة والازدهار الحضاري إذا شئنا أن ننجو ونتعقل..

ولذا نجد وبلا حريصًا– أولًا وقبل كل شيء– تدعيم التفكير العلمي في أذهان الناس، واقتلاع بقايا جذور التفكير الخرافي غير العلمي.. تلك البقايا التي لم تزل معششة في أذهان السواد من الناس، وهو في هذا السبيل لا يتردد في استخدام السخرية اللاذعة لبيان مدى سخافة كل تفكير غير علمي.. وله في ذلك تحف أدبية خالدة، نبهت العقول واسترعت الألباب.. وكانت من أكبر العوامل على دفن التفكير غير العلمي دفنًا لا يرجى له بعده بعث..!

ومن أشهر تلك الطرف الباقية ما تناول فيه فكرة المعجزة، وقد شاءت سخريته اللاذعة أن يجعل مسرح تلك القصة في حانة من الحانات التي تنتشر في ريف إنجلترا ويسهر فيها الناس مساء السبت ما شاء لهم السهر، فيفرطون في الشراب أفراطًا مسرفًا.. ويختلط في جماعتهم الجاهل والمتعلم والفلاح والمصانع والساقية الحسناء البلهاء.. فتلك الجماعة نموذج حسن للعقليات المختلفة في المجتمع الكبير...

فأنت ترى أن العالم الأديب ويلز، وقد بدا بتحضير عناصر القسمة في دقة علمية.. وكان الأشخاص مستحضرات كيماوية يدقق في حصرها وتحديد صفاتها وخواصها، قبل أن يجري عليها تجربته ليشاهد تفاعلاتها.

ويجري ويلز على ألسنتهم– فيما بين رشفات الشراب وكؤوسه المترعة– حديثًا ذا شجون في أمور شتى لا رابطة بينها، ويجعل أحد الكتبة عند سمسار من سماسرة البورصة شابًا تقدميًا مولعًا بشيئين أولهما الإفراط في احتساء الجمعة.. والأمر الآخر مناقشة الأفكار التقدمية بجرأة واندفاع يثيران استنكار المجتمع المحافظ.

وهو في تلك الليلة يشرب كثيرًا ويتناقش كثيرًا.. ولا يدري أحد كيف تحدث بعض الندامى عن المعجزات، فإذا هذا الشاب التقدمي الذي يدعى "ماك" ينتهز الفرصة ليستعرض عضلاته العقلية أمام خادمة الحانة المليحة التي ترمقه بنظرات الإعجاب لفصاحته التي لا تفقه فيها شيئًا!..

ويلح "ماك" في إنكار المعجزات إنكارًا تامًا.. ويصر بقية الشاربين على وجود المعجزات ووقوعها. وهنا يتراءى لويلز أن يبلغ قمة السخرية.. فيجعل "ماك" يدق المائدة بقبضة يده متحمسًا ويصيح:

– أنا لا أحب الكلام المرسل على عواهته.. فهيا نتفق أولًا على المقصود بالمعجزة... إن المعجزة لا تسمى بهذا الاسم إلا لأنها شيء مضاد للتيار الطبيعي للأشياء، شيء تحدثه إرادة مستقلة عن الطبيعة التي نعرفها.. وسأضرب الآن مثلًا..

ويتلفت ماك فيما حوله، وقد تعلقت به جميع أبصار الشاربين ولا سيما الساقية الحسناء، فيقول:

– لنأخذ شيئًا من الأشياء المادية الموجودة أمامنا هنا.. وليكن هذا المصباح المضاء بالغاز. إن الطبيعي أن شعلته تتجه من أسفل إلى أعلى.. أليس كذلك؟

– طبعًا.. وبعد؟

– لنفرض أن شخصًا ما.. وليكن هذا الشخص أنا: زعم لكم أنه يستطيع أن يقلب هذا المصباح رأسًا على عقب من غير أن يتحطم أو يسقط على الأرض، بل يستمر في الاشتعال وهو مقلوب بشعلة من أعلى إلى أسفل.. هل تظنون هذا ممكنًا؟.. إنني لكي أبرهن لكم على سخافة تفكيركم سأمر هذا المصباح بكل قوتي، أن يفعل ما حدثتكم به.. فيا أيها الصباح!

وارتفعت على الفور ضجة في الحانة، لأن المعجزة التي سخر منها منكر المعجزات قد وقعت.. ووقعت عن طريقه هو بالذات، وأطلقت الساقية الحسناء صرخة مدوية ثم سقطت مغشيًا عليها. ولم يكن ذعر مالك أقل من أمر بقية الجلساء.. وبعد قليل تهالك فوق مقعد، فسقط الصباح على الأرض وتحطم.

* * *

هكذا وصل ويلز بالتشويق في قصته إلى الذروة.. وببراعة عكس الأدوار، فأعطى لمنكسري المعجزات القدرة على صنع المعجزات. وأثبت بأمانة علمية أن التركيز الشديد للإرادة، هو أقوى سلاح في يد الإنسان.. وأن كل من يصنع معجزة لابد أن يكون قوى الإرادة وصاحب قدرة بالغة على التركيز، أما حين يتخاذل إيمانه وتتهاوى إرادته، فكل شيء ينقلب إلى حطام...

ويمضي ويلز بذلك الشخص الأعجوبي ماك، فيجمله يقوم بتمرينات وتجارب موهبته التي اكتشفها، والتي صارت محل إنكار ممن كانوا يؤمنون بإمكان حدوث الخوارق من قبل..!

دخل ماك بيته الحقير: وافتقد عود ثقاب ليوقد الشمعة.. فركز إرادته وتمنى أن يكون في يده صندوق ثقاب، وعلى الفور تم له ما تمنى!..

ومرة أخرى يطوي ويلز هذه السخرية بالخرافة على معنى بناء.. أن الإرادة تحقق المستحيل، وأنه لا شيء يمكن أن يتم- حتى وإن كان ممكنًا كل الإمكان- من غير عزيمة وإرادة..

وتمشيًا مع سباق التشويق القصصي، جعل "ماك" يتمنى عشاءً فاخرًا.. فإذا بين يديه مائدة حافلة بكل ما لذ وطاب. وأراد أن يغسل أسنانه، فوجد الفرشاة بالية فتمنى فرشاة جديدة فكان له ما أراد!.. ولم يعجبه فراشه الحقير، فتمنى فراشًا وثيرًا وأغطية من وبر الإبل وفراء الثعالب.. فظفر بها تمنى. وفي فراشه ذاك، نعم بنوم.. وما طلع الصبح حتى سخر موهبته، فصنعت له إفطارًا شهيًا، وثوبًا فاخرًا.. وحملته القرية الخفية إلى عمله حملًا.. وسودت له الصفحات، وجمعت وطرحت وهو لا يبذل جهدًا..!

وفي طريق عودته إلى داره مسرورًا، خطر له أن يتسلى.. فأمر عصاه أن ترقص في الهواء وحدها، فاستجابت له، وإذا الناس يتجمعون.. وأصر الشرطي على أخذه إلى مركز الشرطة، فصرخ مالك فيه:

- أذهب عني الى الجحيم!

فإذا بالشرطي وليس له أثر.. وحزن مالك، واستهول ما أنزله من العقاب بالرجل المسكين.. ولكنه لم يلبث أن صرف ذهنه عن التفكير في ذلك، ومضى يمارس من متع الحياة وملذاتها ما لم يظفر بمثله علاء الدين من مصباحه السحري في كتاب ألف ليلة وليلة القديم..

ولما كان ماك تقدميًا، فقد خطر له أن يسخر موهبته لإصلاح المجتمع ولا يعود بالنفع على عشيرته أجمعين.. فأخذ بأمر بتوسيع الشوارع وحفر الأنفاق تحت الأرض وتعديل خطوط سكة الحديد.. وأنبت في التلال القاحلة أشجار الصنوبر، وجلب إليها أشجار الأرز من لبنان، وتحكم في الحرارة والبرودة وشدة الرياح.

وخطر لماك أن يستغل موهبته فيما هو أعظم وأخطر وأجل.. فكر في التحكم في قوانين الفلك، فأمر الأرض أن تكف عن الدوران.. فصدعته الأرض بأمره. وإذا الجبال تندك، والعمائر تنهار، والأشجار تقلع من جذورها، وإذا أمواج المحيط العاتية تجتاح العاصمة كأنها الجبال.

وذعر ماك مما أقدم عليه من غير روية، فصرخ بأعلى صوته:

– عودي إلى الدوران أيتها الأرض!

فعادت الأرض إلى الدوران.. ولكن الخراب الذي حدث كان عامًا شاملًا، بصورة أفزعت ماك.. فكل شيء قد تهدم وتلاشى من حوله، وفتح عينيه يرفعهما إلى السماء مستنجدًا، وإذا به يجد نفسه ملقى في ركن الحانة.. والمناقشة لم تزل محتدمة حول المعجزات: أممكنة هي أم غير ممكنة؟

* * *

وهكذا يبلغ ويلز غاية الغايات في سخريته ودعايته وجده في آن واحد.. فهو يريد أن يقول إن الكلام من المعجزات في ضوء العلم ممكن

داخل حدود معينة. هذه الحدود إلى العزيمة الصادقة السيطرة على قوى الطبيعة عن طريق المعرفة والدرس لا عن طريق الأوهام والأحلام.

وهو يريد أن يحذرنا من شيء آخر خطير. لعله أخطر من الانسياق وراء الأوهام والأحلام، فالأوهام وأحلام اليقظة قد تكون من خيالات الإفراط في الشراب.. ولن تؤدي في النهاية إلا إلى يقظة قاسية أن عاجلًا أو آجلاً نجد فيها الواقع مسيطرًا على حياتنا. أما ما هو أخطر من الاندفاع وراء الأوهام والأحلام، فذلك هو الوصول إلى السيطرة على أسرار الطبيعة ثم استخدام تلك السيطرة استخدامًا طائشًا.. يمكن أن يؤدي في لحظة واحدة إلى تدمير حضارتنا تدميرًا تامًا..

فلو فرضنا أننا حصلنا على سلطان علمي يوازي السلطان الخرافي الممنوح للغني التقدمي مالك، فيجب ألا تتورط في مثل حماقته.. فتسخر ذلك للعبث بقوى الكون العظمى عبثًا قد يقضي علينا. وإنما الأحرى بنا أن تستخدم هذه السيطرة لإصلاح المجتمع ورفاهية البشر فتنزع الخير وتستزيد منه.. ولا يدفعنا الغرور إلى العبث بمصائر جنسنا لمجرد الشعور الأجوف بالسلطان مثل هذا الدرس البليغ، نجده في كل تحفة من درر ويلز في أدبه العلمي.. فهو معلم وعالي يستحق مكانة أصحاب الرسالات الإنسانية في عصر المعلم، وهو أيضًا ديدبان ماهر يرى المستقبل ويحذر من الخطر الداهم الذي يكمن في حماقة البشر الذين تزداد سيطرتهم على الطبيعة من غير أن يقابل ذلك تحكم حكيم في نفوسهم.

إن ويلز هو أول من خرج إلى الفضاء.. سبق في ذلك جاجارين بزمن طويل.. أن من كتبه «حرب الكواكب». ومن كتبة «آلة الزمن».. وهو أول المسافرين إلى القمر.

* * *

والآن من هو هذا الرجل الذي خرج في أزمة الحضارة ليرفع اللواء العصر العلم ومجتمع المستقبل؟

من هو ذلك الذي نادى باشتراكية بتولي القيادة فيه الصفوة الممتازة من أشراف الناس؟

أنه ابن خادمة!

إنه ابن امرأة لو تقدم بها الزمن بضعة قرون لقيل عنه أنه ابن أمة من الرقيق!

لقد كتب ويلز ترجمة حياته بقلمه، ولم يخف فيها شيئًا من أسرار نشأته.. فذكر أن أمه كانت خادمة في قصر ريفي كبير، ثم تقدم الزمن بتلك الخادمة فصارت مديرة القصر.. أي رئيسة للخدم.

ويصفها ابنها بأنها كانت امرأة ضئيلة الجسم، لطيفة المعشر، شديدة التدين، تحترم النظم الاجتماعية القائمة.. أي أنها كانت ممن يسميهم الناس بالمحافظين، فغاية أمانيها حين كبرت سنها وصارت أم كاتب من أشهر رجالات زمنه أن تقلد بقدر الإمكان في الزي والسمت "حضرة صاحبة

الجلالة الملكة فيكتوريا المنظمة ملكة إنجلترا وإمبراطورة الهند وحامية الإيمان وصاحبة المستعمرات التي لا تغيب عنها الشمس!".

ومن أبوه؟..

إنه بستاني في ضيعة مجاورة اسمه جوزيف ويلز.. وكان على خلاف زوجته في المزاج والطباع، فهو غير متزمت.. يحب الرياضة واللهو والصيد، ويكره مجالس الوقار. وهو متوقد الذكاء، فكان هذا الزواج بين نقيضين مصدر شقاء كبير لتلك المرأة الطيبة محدودة العقل!

ونشأ الفتى شديد الإعجاب بذكاء أبيه.. وورث عنه عقله المتفتح وعينيه الزرقاوين العميقتين كأنهما قطعة من ماء المحيط!..

وما أكثر ما كانت "سارة" تقول لابنها الصغير:

– من سوء طالعك أن أباك ليس من الأشراف!

وكانت أقصى أمانيها له أن يغدو بائعًا للأقمشة في متجر محترم بالمدينة!.. وقد وجهته فعلًا إلى هذه المهنة بعد أن أختلف إلى المدرسة أعوامًا قلائل. وظل الفتى عامين من سنوات يفاعته، ينام في قبو أسفل المتجر.. ولا يصيب في مأواه الرطب من الطعام إلا أقله وأردأه.. يقدمونه إليه على مضض شديد، ويمنون عليه به!

فلما بلغ الفتى الخامسة عشرة من عمره عمد إلى الأباق، كما يأبق العبد الرقيق من نير مولاه.. وما هذا بكلام يطلق على سبيل المجاز، فحياة

العامل حينذاك هي بعينها حياة الرقيق قبل قرنين من الزمان أو أكثر.. فما تغيرت حقيقة الرق في الواقع وأن تغير العنوان...!

وقطع الفتى الآبق نحوا من خمسة وعشرين كيلومترًا، سعيًا على قدميه الكليلتين، وهو خاوي المعدة. ولكن كان أشد عليه من خواء المعدة، وخوار البدن، شعوره بالتآثم الشديد لما يسببه من الهم والغم لأمه الطيبة التي سترى في فعلته نذيرًا قويًا بالفشل يوشك أن يجعل منه نسخة مكررة من أبيه!

بيد آن ويلز عندما بلغ أشده، حمد لنفسه ذلك الصنيع.. وأيقن أنه كان من أحسن ما أقدم عليه في حياته من الأعمال، لأنه كان نقطة التحول الحاسمة في مجرى حياته من الخمول والعبودية الى الانطلاق والنبوغ.

* * *

ومما يذكر بالتقدير ولا مراء لويلز، أن تلك المشاق المضنية في باكورة صباه لم تترك في نفسه أثرًا باقيًا من المرارة والحقد، وعند ما صور تلك الأيام في أقاصيصه جاء وصفه لها خلوا من كل شيء.. اللهم إلا الدعابة الصافية، وهكذا المحنة تزيد الطبائع القوية قوة..

وإلي هذه الأعوام يرجع الفضل في تمكين ويلز من فهم الطبقات العاملة ومشكلاتها وشواغلها، ومن دراسة الطبقات العليا عن طريق القصر الذي تعمل فيه أمه ومراقبة تلك الطبقات الراقية من الخارج قبل أن يظهر نجمه يندمج فيها عن كثب.

في المساء كان يجلس وهو صغير في قاعة الخدم بالقصر مع أمه.. وعندئذ يقبل الساقي رئيس الخدم، وقد أعد قائمة بالأخطاء اللغوية والتاريخية التي تردى فيها السادة الأجلاء الذين يقوم بخدمتهم على المائدة وفي قاعة الاستقبال!

وقد نهج ويلز نهج ذلك الساقي النحوي!.. فهو يسجل مواطن الضعف الفكري والوجداني لدى من يتربعون فوق قمة النظام الاجتماعي في العالم الحديث!

ومنذ بلغ الثالثة عشرة، شرع عقل ويلز المتوقد يتساءل عن مبرر وجود هذه الطبقة السائدة!.. وعن مدى لزومها لاستقامة الأمور في المجتمع! وبدا له أن المجتمع يفتقر افتقارًا شديدًا إلى التوازن بسبب وجود تلك الطبقة العليا، وهي غير كفء للوضع الذي تشغله فوق القمة. وبدا له أيضًا أن الطبقة التي تسيطر على المجتمع الحديث، وليدة نظام اجتماعي إقطاعي أو زراعي أتت عليه يد التطور!

ولكن حذار أن يذهب الظن بنا إلى أن ويلز كان من دعاة التمرد والثورة التي تستأصل شأفة كل ما هو فاسد بضربة واحدة.. فهو لم يكن بغض الطبقة الثرية أو يحقد عليها. وقصاري الأمر أنهم في نظره سخفاء مضحكون.. وهو يروي في قصصه سخريته بنفسه عندما كان يقلد أولئك المتكلفين المتحذلقين وهو غلام صغير..

إن ويلز أقرب بفكاهته السمحة إلى الاستهانة بأبناء الطبقة العليا لا القسوة عليهم..!

* * *

وكان الفتى، منذ تعلم القراءة، شغوفًا بالعلم.. ولكن لعل الفرصة ما كانت لتتاح له كي يشبع نهمه إليه، لولا محنة ضاق بها هو وأهله أشد الضيق حين ألمت به واحتسبوها نقمة خالصة..

كسرت ساق الصبي وهو في السابعة من عمره.. فظل قعيد الفراش شهورًا لا هم له فيها إلا استيعاب كل ما ينفق له من صنوف الكتب، يستعيض بالرحلة في آفاقها عن الحركة بساقه المهيضة.. وهو يقرد في سيرته بصريح العبارة:

– إنني مدين بوجودي اليوم على قيد الحياة، واشتغالي بصناعة القلم والرأي، لساقي المهيضة.. فلولاها لكنت أكبر الظن بائعًا هد الكدح القلائل قواه، فطرده رب العمل ثم أدركه الموت ضعفًا وحسرة..!

ومن بذرة تلك الشهور التي قضاها قعيد الفراش، تكونت لديه عادة الاطلاع حتى صارت شهوة وإدمانًا.. ثم نمت البذرة واتسعت دائرة الاطلاع بسرعة عظيمة، حتى لقد أصابه من ذلك شر وهو في الثالثة عشرة من عمره حين كان صبيًا بائعًا في متجر الأقمشة.. افتقده صاحب المتجر ونقب عنه، فوجده في المخزن خلف أحد الأعمدة بدون في كراسة

صغيرة إجابات موجزة من أسئلة من قبيل: "ما هي المادة؟" و "ما هو الفضاء؟".

ولما فر من جحيم ذلك المتجر إلى أمه، يعلن لها أنه لن يعود إلى نير ذلك الرق.. قيضت له المقادير معلمًا متقدمًا في السن من معلمي مدارس الإقليم، اكتشف فيه مواهب الذكاء اللامع وسعة الاطلاع فأتاح له وظيفة مساعد مدرس في مدرسة أولية.. وهو لم يبلغ السابعة عشرة من عمره.

وأقبل الفتى على التعليم، وراح في الوقت نفسه يدرس ويتقدم من الخارج إلى الامتحانات العامة فيجتازها بتفوق ملحوظ.. فقد خطر له أن يدخل مسابقة كلية معلمي العلوم في كنسنجتن الجنوبية. ومن مزايا هذه المسابقة أن يحظى المتفوق فيها بمنحة دراسية تشبه البعثة الداخلية.. وجاء ترتيب ويلز في تلك المسابقة الأول.. وكانت قيمة المنحة الدراسية التي حصل عليها كي يعيش في لندن، ويتلقى العلم، جنيهًا واحدًا في الأسبوع.. كان يعتبر مبلغًا محترمًا في ذلك الزمن، فلا عجب أن يفرح العالم الصغير الفقير بتلك الثروة الهابطة من السماء!

* * *

وكان بين أساتذته في كلية كنسنجتن رجل من أعظم أساتذة عصره، وهو الأستاذ هكسلي الكبير.. والد النابغتين العظيمتين جوليان هكسلي والدوس مكسلى.. وصديق ونصير العالم العظيم داروين.. ولا شك في أن شخصية هكسلي الكبير كانت أقوى وأعظم تأثيرًا في التلاميذ من صديقه

الكبير الخجول داروين.. فلم يكن الدرس على يديه تعليمًا فنيًا فحسب، بل كان أيضًا وقبل كل شيء تثقيفًا وتشكيلًا للعقل ولمنهج التفكير، وفي ذلك يقول ويلز:

- إن دراسة علم الحيوان– على يد هكسلي– كانت سلسلة رائعة من التدريب العلمي الصارم الدقيق الجاد.. إنها تدريب على مناهج البحث ونقد الوقائع. ولا ريب عندي في أن السنة التي قضيتها دارسًا– على يد هكسلي– كانت أعظم السنوات أثرًا في حياتي التعليمية، وأجداها ثمرة.. فقد ترك إلى الأبد في عقلي طابعه الباقي، واخص خصائصه الحرص على الدقة في الاستقراء واستخلاص النتائج، والنفور من الأحكام المبتسرة والظنون المرتجلة وهذا هو الفارق الجوهري بين عقل مثقف، وعقل لم يدرك التثقيف.

وفي تلك الفترة من العمر، اختمرت لدى ويلز فكرته العلمية عن المجتمع البشري.. فكتب مقالًا أعلن فيه أننا ينبغي ألا نعتبر البشر طبقات متفاوتة إلا على سبيل المجاز البعيد، فكل فرد فريد في بابه.. بيد أن التفكير الرياضي والأسلوب الإحصائي هما اللذان يجنحان بنا إلى هذا التصنيف، فيسبق إلى أوهامنا أن كل إنسان شبيه كل إنسان، كما تشبه الذرة الذرة.. مع أنه حتى الذرات لا تشبه الواحدة منها ذرة أخرى.

ومن العجيب أن هذا الرأي في الذرة انتهى إليه أكابر العلماء بعد أن أعلنه ويلز بثلاثين عامًا!

وبعد تخرج ويلز في تلك الكلية اشتغل معلمًا للأحياء: ثم بدأ يبصق دمًا، لأن داء السل شرع يطرق باب صدره. وليس المريض بالسل أن يشتغل بالتدريس، فاحترف الكتابة الصحفية، وابتدع نوعًا من الصحافة العلمية.. وقد ظل عامين يعيش بين المرض والفاقة، أن أدرك ثمن القوت فاته ثمن الدواء!

* * *

وكان من الطبيعي أن يغري هذا الصحفي العالم- صاحب الاهتمامات الاجتماعية- بخوض غمار السياسة.. بيد أن ويلز لم يستجب لهذا الإغراء، وآثر أن يدخل ميدان الإصلاح الاجتماعي من باب الأدب والقصة.

ومن سنة ١٩٨٥ إلى سنة ١٩٠٢ انصرف ويلز إلى كتابة القصة العلمية، وذاعت شهرته بسرعة خارقة.. وأقام مجده الأدبي العلمي على قصة الساحرة "رحلة في دنيا المستقبل أو آلة الزمن".. ثم أعقبها بجزيرة الدكتور مورد، ثم الرجل الخفي، وأجمع النقاد على اعتباره مبتكرًا لعالم خيالي كامل..

وبعد ذلك أخرج سلسلة من الروايات، صور فيها جوانب من حياته الشخصية بأسلوب ساخر ضاحك. وأهم هذه الروايات قصة "كبس" وقصة "مستر بولي" ثم أصدر سلسلة ثالثة من الروايات الذهنية أهمها قصة

"الزواج" و"ميكيافيللي الجديد". وأصدر كتبًا غير روائية يصور فيها أفكاره بصورة عقلية مرسلة.. وأهم هذه الكتب و "الطوبيا العصرية".

وما إن اندلعت الحرب العالمية الأولى، حتى كانت شهرة ويلز– أدبيًا ومصلحًا اجتماعيًا– لا تعلو عليها شهرة أحد. واتصل بالحركة الشبابية، وعلى الخصوص ببرناردشو. ورمزي ماكدونالد وأتباعه أقطاب الحركة العمالية في إنجلترا.

ولكنه لم يلبث أن صارحهم باختلافه معهم في الرأي.. فالاشتراكيون الحزبيون يؤمنون بصراع الطبقات، وأن الطبقة العاملة يجب أن تصل إلى الحكم فتسود الطبقات الأخرى. أما ويلز فكان همه موجهًا إلى تنظيم جميع الطبقات، وتهذيب التعاون بينها على أساس يحقق تكافؤ الفرص.. وبحيث تتعاون الطبقات جميعًا للكفاح ضد الفوضى والغباء.

أن ويلز لا يسعى لتغليب طبقة على طبقة.. فالطبقات عنده من المجتمع بمثابة الأعضاء من البدن، فلابد من التنسيق التعاوني بينها حتى لا يكون بعضها البعض عدوًا. وهذا التنسيق– على أساس علمي– لا محيص عنه في عصر يسود فيه العلم.. فالعلم يؤمن بالتنظيم لا بالتطاحن وبالتعاون المثمر الموجه لا بالصراع.

إن ما يعني ويلز من الاشتراكية هو إقامة جمهورية عالمية تتكفل بتنظيم الاحتياجات الجديدة للبشر، وتتيح لحضارتهم العلمية أحسن ازدهار ممكن كي تعم مزاياها الجليلة للناس كافة.

وهذه الجمهورية "الويلزية" ليست ديموقراطية تقوم على المساواة المطلقة، بل لابد أن يحكمها صفوة الأشراف من الناس، ولكنهم ليسوا أشراف الجاه والوراثة والثراء، بل أشراف العلم والذكاء.. فأولئك بمثابة المخ من البدن، إليه تصريف الأمور وحده لأنه وحده القادر على تصريفها..

الرسالة الجمهورية العالية، والرسالة سيادة العقل والعلم.. ولرسالة تكافؤ الفرص وتعاون الطبقات لقيام مجتمع اشتراكي يسوده التعاون والتنظيم العلمي... عاش ويلز عدوًا للاستعمار والاستبداد، مبشرًا بالسلام، داعيًا إلى تربية جديدة تخرج لنا الإنسان الجديد الذي يصلح العمارة عالم جديد يقوم على أساس من العلم والعقل والعدل.

أندرية موروا

القسم الأول

رحلة المستقبل

المستحيل الذي صار ممكناً

الرحالة

كانت عيناه الرماديتان تتألقان بوميض أخاذ.. أما وجهه الذي كنت أعهده في العادة شاحب اللون، فيبدو في ضوء المصابيح الكهربائية محتقنًا شديد الاحمرار مما يدل على أن صديقي رحالة الزمان كان يعاني صراعًا عنيفًا بين مشاعر متضاربة، أو كان على الأقل تحت وطأة انفعال من نوع خارق للمألوف..

والواقع أن رحالة الزمان كان على وشك الإفضاء إلينا بموضوع على جانب كبير من الخطورة، كان حتى تلك الليلة يحتفظ به سرًا مدفونًا بين طوايا جوانحه. وكنا قد فرغنا لتونا من طعام العشاء الذي دعانا إليه ذلك الإنسان الغريب الأطوار في كل صغيرة وكبيرة من أمور حياته وتصرفاته.. فالمقاعد التي جلسنا عليها بعد القيام عن المائدة كانت وثيرة حقًا، ولكن لم تكن فخامتها ووثارتها أهم ما فيها.. بل كان الطريف حقًا أنها من تصميم صاحبنا رحالة الزمان، وكان تصميمًا يجمع بين الأصالة والطرافة، بحيث يحس الجالس وكأن الكرسي كائن حي يضم جسمه بين ذراعيه مرحبًا مشوقًا إليه.. فتكون الجلسة أقرب إلى طمأنينة الحبيب بحبيبه، منها إلى الغوص في مادة جامدة مهما كانت درجة نعومتها وطرافتها.

كل شيء في جو هذا الرحالة وبيته مختلف حقًا عن سائر ما في بيوت الناس، لأن عقله مختلف عن عقول الناس وأساليب تفكيرهم المطروقة.

وكنا نحسب في بداية الأمر أن السعر الجديد تقليعة جديدة من منكراته التي لا نهاية لها، لأن عهدنا بمخيلته الخصية أنها عجيبة تلد كل عجيبًا.. ولكنه لوح بسبابته وقد ازداد احمرار وجهه تألقًا وازداد بريق عينيه توهجًا وقال:

– يجب أن تعيروني انتباهكم، وأن تتابعوا أقوالي بكل عناية، لأني سأهدم بضعة أفكار معترف بها من جميع الناس ويعتبرونها مبادئ أساسية يقوم عليها بناء العقل وبناء الواقع.. فالهندسة التي علموكم إياها في المدرسة مثلًا، سأثبت لكم أنها قائمة على دعم وتصور خاطئ بعيد عن الصحة كل البعد!

فقاطعه فيلبي، وهو شخص مغرم بالجدل ذو شعر أحمر، قائلًا:

– أليست هذه بداية من العسير علينا أن نتقبلها ونعتبرها أساسًا للمناقشة؟!

– أنا لا أريد منكم أن تتقبلوا شيئًا من غير إثبات مقنع.. وستجدون أنفسكم مقتنعين بكل ما أريد منكم أن تقتنعوا به، وكلكم تعرفون طبعًا أن الخط الهندي عبارة عن خط له طول وليس له عرض.. هو امتداد بدون سمك، أي أنه شيء لا وجود له في الواقع، أليس هذا ما علموه إياكم في المدرسة وكذلك جميع أنواع السطوح.. فالمساحة في الهندسة شيء ليس له سمك. وهذه كلها أمور ذهنية.. عبارة عن تجريدات ذهنية.

وهز أحدنا– وهو عالم نفساني– رأسه قائلًا:

– هذا صحيح..

– وبالمثل.. المكعب الذي ليس له سوى طول وعرض وارتفاع لا يمكن أن يكون له وجود واقعي.

فصاح فيلبي:

– أنا أعترض على هذا الكلام.. فأي جسم له هذه الصفات من طول وعرض وارتفاع يمكن أن يوجد في الواقع.

–هذا ما يتوهمه معظم الناس.. ولكن أمهلني لحظة، وأجبني عن هذا السؤال: هل المكعب الذي لا يستمر وجوده أي مدة من مدد الزمن يمكن أن يكون له وجود حقيقي؟

وسكت فيلبي مفكرًا في السؤال ولم يجب، فأدرك أن رحالة الزمان أنه عاجز عن الجواب.. واأستطرد قائلًا:

– من الواضح أن أي جسم له وجود واقعي يجب أن تكون له أربعة أبعاد: هي الطول والعرض والارتفاع و.. الزمن أو البقاء. ولكن الناس درجوا بسبب ضعف بصيرتهم ونقص إدراكهم على إغفال هذه الحقيقة.. فهناك فعلًا أربعة أبعاد ثلاثة منها خاصة بالمكان، والرابع هو الزمان، وهناك اتجاه عام بين الناس لوضع حد فاصل– لا أساس له من الواقع– بين أبعاد المكان الثلاثة والبعد الزمني الذي هو البعد الرابع. وسبب هذا الاتجاه الخاطئ أن الوعي البشري يتحرك بلا توقف في وجهة واحدة من

وجهات الزمان من بداية الحياة إلى نهايتها، فيغفل الناس إدخال الزمن في حسابهم عندما يتصورون وجود الأجسام المادية.. ولا يبقى في ذهنهم إلا أن الأجسام موجودة في المكان فقط.

وهتف من بيننا شاب حديث السن جدًا، وهو يشعل سيجارًا:

– لقد صار الأمر في غاية الوضوح حقًا..

وظهر السرور والانشراح على وجه رحالة الزمن، واستطرد بمزيد من التفاؤل:

– وليس هناك أي فرق في الحقيقة بين الزمن وبين أبعاد المكان الثلاثة: سوى أننا نتحرك دائمًا في الزمن بلا توقف. أما المكان فنتحرك في بعض العادة دون البعض الآخر وقد تتوقف فيه عن الحركة.. فيخيل إلينا لتعود أبعاد المكان أن أبعاده هي الأبعاد الوحيدة الموجودات، وننسى البعد الرابع للموجودات كلها وهو الزمن الذي لا نعرف له في حياتنا إلا بعدًا واحدًا يمتد على استقامته من المواد إلى الممات.. ولكن العلماء في الوقت الحاضر يبحثون في إقامة علم جديد للهندسة، هو الهندسة الرباعية الإبعاد، بدلًا من الهندسة القديمة الثلاثية الإبعاد وقال أحدنا، وهو عمدة من عمد الأقاليم:

– هذا شيء جميل.. جميل جدًا..

– ولا أخفي عنكم إنني كنت مهتمًا في المدة الأخيرة بهذه الهندسة الرباعية الإبعاد، ووصلت إلى نتائج بعضها طريف بل غريب.. فها هي ذي مثلًا صورة إنسان وهو في العام الثامن من عمره، وصورة أخرى له وهو في العام الخامس عشر، وصورة ثالثة وهو في العام السابع عشر، وصورة رابعة وهو في العام الثالث والعشرين، وهلم جرا.. وجميع هذه الصور عبارة عن قطاعات من وجود هذا الشخص في المكان، أي وجوده في الأبعاد الثلاثة. ولكن الوجود الحقيقي التام لهذا الشخص لا يمثله أي قطاع من هذه القطاعات، لأنه وجود ذو أبعاد أربعة لا ثلاثة فقط!

وتمهل رحالة الزمن قليلًا، كي يترك فرصة أمام مستمعيه لهضم ما تقدم من عباراته.. ثم واصل كلامه قائلًا:

– إن رجال العلم يعرفون تمام المعرفة أن الزمن ما هو إلا نوع من أنواع المكان.. وها هو مثلًا رسم بياني من النوع الشائع جدًا بين الناس يمثل التغييرات الجوية، وهذا الخط الذي أتتبعه بأصبعي نبين حركة مقياس الحرارة أو مقياس الضغط.. فأمس صباحًا كان الضغط مرتفعًا جدًا، ثم انخفض أمس مساء، ثم ارتفع مرة أخرى هذا الصباح. وبطبيعة الحال لم يكن الزئبق الموجود داخل مقياس الضغط هو الذي رسيم هذا الخط البياني في أي بعد من الأبعاد المعروفة بأسياد المكان، ولكن هذا الزئبق رسم خطًا شبيهًا بهذا الخط الذي أمامنا.. وقد رسمه بالتأكيد في بعد غير أبعاد المكان الثلاثة.. هو حقًا البعد الرابع أو البعد المعروف في لفتنا باسم الزمن.

وكان المتحدث في هذه المرة رجلًا من رجال الطب، قال:

- ولكن إذا كان الزمن حقًا مجرد بعد رابع من أبعاد المكان، فلماذا كنا دائمًا نعتبره شيئًا مختلفًا تمامًا من المكان ومنفصلًا عنه.. ولماذا لا نستطيع التحرك في الزمن كما نتحرك في إبعاد المكان الأخرى على هوانا؟

فابتسم رحالة الزمن وقال:

– وهل أنت متأكد من أننا نستطيع التحرك في المكان بشتى أبعاده الثلاثة على هوانا؟.. إننا نستطيع أن نتحرك على هوانا يمينًا ويسارًا وإلى الأمام وإلى الخلف.. وهذا ما كان الناس يمارسونه دائمًا في حركاتهم كلما شاءوا، ولهذا أوافقك على أن الإنسان يتحرك على هواه في بعدين فقط من أبعاد المكان هما الطول والعرض.. أما الحركة الى أعلى والي أسفل، ارتفاعًا وهبوطًا، فليس الأمر فيها رهنًا بمشيئتنا، لأن الجاذبية الأرضية تقف في وجهنا وتضع لحركاتنا علوًا وسفلًا حدودًا وقيودًا..

فاعترض الطبيب قائلًا:

– ليس هذا الكلام صحيحًا على إطلاقه.. فهناك البالونات والطائرات.

– إذا رجعنا إلى الوراء قليلًا– أي الى ما قبل ابتكار هذه المخترعات– فإننا نجد أن الإنسان كان لا يستطيع التحرك الى أعلى إلا على صورة قفزات اجتهادية متعبة.

– هذا لا ينفي على كل حال أن الحركة إلى أعلى كانت ممكنة بصورة ما، وكذلك إلى أسفل، لأن من يقفز إلى أعلى يهبط ثانية إلى أسفل..

– مع فارق واضح بين الارتفاع والهبوط.. فالارتفاع شاق، ولكن الهبوط هل ميسور بلا جهد..

فقطب الطبيب حاجبيه قليلًا، وقال بشيء من الحدة:

– ولكنك على كل حال لا تستطيع أن تتحرك بأي صورة من الصور في الزمان.. لا تستطيع أن تخرج قيد أنملة من اللحظة الحاضرة..

فزادت نبرات وحالة الزمن عزيمة وإصرارًا، وهو يرد عليه قائلًا:

– وهذا يا سيدي العزيز هو موضع خطئك بالضبط! هذا بالضبط هو موضوع خطأ جميع الناس حتى الآن.. فنحن في الحقيقة دائمًا ما نخرج من اللحظة الحاضرة..

وعندئذ قاطعه العالم النفساني قائلًا:

– ولكن هذه هي المشكلة!.. من المفروغ منه أنك تستطيع أن تتحرك في أي اتجاه أو بعد من أبعاد المكان.. أما الزمن فلا يمكنك أن تتحرك فيه أو تتجول ما تفعل في المكان!

– وهذا بالذات هو جوهر اكتشافي الجديد، اكتشافي الهائل الخطر! ولكنكم تخطئون أكثر، أذ تقولون إننا لا نستطيع أن نتحرك أو تتجول في الزمن.. فأنا مثلًا إذا استرجعت في ذهني أي حادث مضى استرجاعًا

واضحًا جليًا، أكون بذلك قد رجعت في الزمن إلى لحظة وقوع ذلك الحادث.. وهذا أشبه بقفزة لا إلى أعلى بل بقفرة إلى الماضي، قفزة إلى الخلف في الزمن تجعلني أبدو شارد الذهن.. وجميع الحيوانات لم تستطع التغلب على قيود الجاذبية التي تمنع البقاء في الهواء.. ولكن الإنسان المتحضر أستطاع أخيرًا التغلب إلى حد ما على هذه الصعوبة باختراع البالونات والطائرات، فلماذا تجزم مقدمًا بأنه من المستحيل على الإنسان المتحضر أن يجد وسيلة من الوسائل تمكنه من البقاء في الماضي أي مدة من الزمن يريدها؟.. وإذا وجد هذه الوسيلة المبتكرة فلماذا لا يستخدمها أيضًا في الرحلة في الاتجاه المضاد للماضي: في المستقبل؟!.

فصاح فيلبي:

– أوه! هذا كثير!

– لأنه ضد العقل! لأنه غير معقول! وبهدوء تام سأله وحالة الزمن:

– ضد أي عقل؟... أي معقول؟

مسالة برهان

صاح فيلبي قائلًا:

– اسمع في وسعك إن تبرهن بالجدل على أن الأبيض أسود.. ولكنك لن تصل إلى إقناعي بأن الأبيض أسود..

وبهدوء أيضًا قال وحالة الزمن:

– ربما.. ولكنك الآن على كل حال ترى بوضوح الموضوع الرئيسي لما قمت به من أبحاث في الهندسة الرباعية الأبعاد.. وعندي منذ أمد طويل فكرة أولية عن آلة..

فصاح الشاب الحديث السن الذي يدخن السيجار:

– تجوب بها أنحاء الزمن؟

– آلة في وسعها أن تجمع المكان والزمان في أي بعد من الأبعاد، أو اتجاه من الاتجاهات، على حسب مشيئة السائق..

واكتفى فيلبي بضحكة أطلقها، وكأنه يقول:

– هذا كله كلام في كلام...

وأدرك رحالة الزمن هذا المغزى، فقال بهدوء:

– وليس هذا مجرد كلام.. لأني قمت بتحقيقه وإثباته عن طريق التجربة!

فتململ العالم النفساني في مقعده قليلًا وقال:

– إن مع هذا فستكون له فائدة كبرى بالنسبة المؤرخ.. إذ سيكون في وسعه أن يرجع فعلًا إلى الوراء في الزمن ليتحقق بنفسه– وعلى الطبيعة– من الأحداث الهامة والمواقع الحربية التي كثر حولها الجدل من غير أن ينتهي إلى نتيجة حاسمة..

ثم استطرد العالم النفساني باسمًا:

– ما أبرع الخيال! وما أسرع ما يشتط بنا حين يفتح باب المستقبل أمام أعيننا!..

فقال الرحالة:

– هذا ما حسبت حسابه، ولذا لم أبح بسري لإنسان الى أن جربته...

فصحت مأخوذًا:

– أتعني إنك جربت هذه الرحلات في الزمن حقًا؟!

وصاح الآخرون وفي مقدمتهم العالم النفساني:

– عليك بالبرهان!.. هات التجربة العملية!.. فهذا كله في الغالب شقشقة لسان ليس عليها برهان!

فابتسم وحالة الزمن ابتسامة غامضة، تفيض بعشرات المعاني.. ثم أدار إلينا ظهره في صمت، وغادر الحجرة شأن من قبل التحدي.. ومضى في طريقه ليأتي بالدليل العملي الذي يفحم المعارض ويخرس اللسان!..

* * *

وجلسنا كلنا ونحن في حيرة شديدة من أمر صديقنا الغريب الأطوار، وكل منا يجهد ذهنه في تخيل ما سيطلع علينا به.. وأطلق فيلبي دعابة ساخرة، لم يكد يتمها حتى عاد إلينا الرحالة وفي يده جسم معدني لامع لا يزيد حجمه على حجم ساعة متوسطة من ساعات الحائط، وفي هذه الآلة أجزاء مصنوعة من العاج وأجزاء أخرى من مادة للورية شفافة.. وتناول الرحالة إحدى الموائد الصغيرة المتناثرة في الحجرة فوضعها أمام النار.. وفوق هذه المنضدة وضع الآلة الغريبة التي تركزت عليها أبصارنا.

ثم قرب منها مقعدًا جلس فيه..

وكان فرق تلك المنضدة أيضًا مصباح صغير يسقط ضوءه الوهاج فوق الجهاز موضوع التجربة.. وكان في الحجرة أيضًا ما لا يقل عن اثنتي عشرة شمعة مضاءة وموزعة بحيث كان النور في الحجرة كافيًا جدًا. وجذبت المقعد الذي كنت أجلس فيه بحيث صار في موضع متوسط بين النار المشتعلة في المدفأة وبين رحالة الزمن. ومن خلف رحالة الزمن جلس

فيلبي، وأخذ يتطلع من فوق كتفه إلى الجهاز.. وعن يمين الرحالة جلس الطبيب والعمدة الريفي، وعن يساره جلس العالم النفساني. وأما الشاب الحديث السن الذي يدخن السيجار، فوقف وراء ظهر العالم النفساني.. وكنا جميعًا في منتهى اليقظة، فلم يخامرني الشك في أنه لا مجال لحدوث أي تلاعب، أو نجاح أي خدعة، على ضوء تلك الظروف..

ورفع رحالة الزمن بصره إلينا، ثم نظر إلى الجهاز ولم تكلم..

فقال العالم النفساني يستحثه:

– وبعد؟..

فوضع الرحالة مرفقيه فوق المنضدة الصغيرة، وضم راحتيه فوق الجهاز وقال:

– هذا الجهاز الصغير ليس إلا نموذجًا للآلة المنشودة.. وفي هذا النموذج وضعت تصميم آلة الزمان كاملًا، وهو كما ترون نموذج غريب لا أظنكم رأيتم له شبيهًا من قبل..

ونهض الطبيب من مقعده وحدق في الجهاز بنظرات فاحصة وقال:

– أنه حقًا جميل الصنع..

واستطرد الرحالة يقول:

– واستغرق أعداده عامين.. وكل رافعة من دوافعه مصنوعة من مادة معينة، والآن أريد منكم أن تتبينوا وظيفة كل رافعة منها، فهذه مثلًا عند

الضغط عليها تقذف بالجهاز فيشق حجب المستقبل ويوغل فيه، وتلك الرافعة الأخرى عند الضغط عليها تتخذ الآية اتجاهًا عكسيًا... وهذا السرج هو عبارة عن المقعد الذي يجلس فيه من يجوب الزمن بواسطة هذا الجهاز. والآن سأضغط على الرافعة الأولى وستنطلق الآلة فتختفي بين طيات المستقبل. فانظروا إلى الآلة جيدًا وانظروا إلى المنضدة أيضًا، وتدقوا من أنه ليس في الأمر أي خدعة فأنا لا أريد أن أفقد هذا النموذج، ثم يبرز لي منكم من بقول إنني محتال أو نصاب!

وساد الصمت دقيقة كاملة تقريبًا.. ثم مد الرحالة سيادته نحو الرافعة، ولكنه عدل عن ذلك في آخر لحظة قائلًا:

–كلا.. بل أعرني أنت يدك..

ثم التفت نحو العالم النفساني، فتناول يده وطلب منه أن يمد سبابته.. فكان العالم النفساني هو الذي أطلق نموذج آلة الزمان في سفرتها التي لا أوبة منها ولا نهاية لها..

ورأينا كلنا الرافعة وهي تتحرك.. وإني لواثق تمام الثقة أنه لم تكن هناك خديعة. ثم هبت نسمة من الهواء واختلجت أضواء الشموع وانطفأت إحداها والآلة الصغيرة تدور حول نفسها بسرعة عظيمة بحيث اضطرت معالمها فلم يعد منها سوى شبح. وبعد لحظة واحدة اختفت عن الأنظار تمامًا كأنما ذابت في الهواء، وخلت المنضدة من كل أثر لها..

وسكتنا مبهوتين نحو دقيقة كاملة.. ثم أطلق فيلبي لعنات عبر بها عن ذهوله. وعندئذ أفاق العالم النفساني وثاب إلى رشده، وأخذ ينظر تحت المنضدة وقد فقر فاه وعينيه.. فضحك رحالة الزمن من كل قلبه، ثم نهض واتجه الى قدر فوق رف المدفأة يحتفظ فيها بالطباق. وأولانا ظهره، وشرع يحشو غليونه بهدوء..

وتبادلنا النظرات فيما بيننا.. ثم قال الطبيب:

– اسمع يا صاح!. هل أنت جاد حقًا في هذه المسألة؟ أتعتقد بصفة جدية أن آلتك تلك انطلقت من هنا لتجوب الزمن؟

فقال رحالة الزمن، وهو ينحني ليشعل غليونه بعود أوقده من نار المدفأة:

– طبعًا.. بل عندي لكم ما هو أكثر من هذا.. عندي آلة كبيرة من هذا الجهاز أوشكت أن أفرغ من صنعها.

وعندما يتم تجهيزها أنوي أن استقلها في رحلة خاصة أجوب فيها الزمان ذهابًا وإيابا.. إلى الخلف وإلى الأمام!

فصاح فيلبي:

– أتعني أن جهازك هذا يجوب الآن المستقبل؟

– أو الماضي.. لا أدري إيهما على كل حال... وكأنما هبط الإلهام على العالم النفساني، فهتف:

– لابد أن الجهاز الآن يجوب الماضي لا المستقبل؟

– لماذا؟..

– لو كان يجوب المستقبل لصار الآن هنا.. لأننا الآن في المستقبل فعلًا بالنسبة للحظة التي انطلق فيها الجهاز!

فقلت أنا معترضًا:

– ولكن لو أنه اتجه إلى الماضي كان باديًا لأعيننا عندما دخلنا هذه الحجرة الليلة لأول مرة.. بل لكان باديًا لأعيننا يوم الخميس الماضي ويوم الخميس الذي قبله وكل يوم من أيام الخميس التي تعودنا أن نجتمع فيها هنا!

فهز العمدة الريفي رأسه بوقار، وقال وهو ينظر إلى الرحالة:

– اعتراضات معقولة يا سيدي فقال الرحالة بهدوء:

– بل لا أساس لها على الإطلاق، وصديقي العالمي النفساني يستطيع أن أؤكد لكم أن هناك حدودًا خاصة الإبصار عند البشر وخارج هذه الحدود لا نستطيع أن نرى الأجسام، فإذا دار الشيء بسرعة عظيمة جدًا حول نفسه وزادت هذه السرعة لم نر هذا الشيء بعد حد معين من حدود السرعة.. انظروا الى ذراع المروحة الكهربائية، وكيف يتميع شكله عند دورانها، فإذا زادت سرعة الدوران عن حد معين لم نر لذراع المروحة أثرًا فكأنه غير موجود.. وكذلك الرصاصة المنطلقة في الهواء لا نراها لسرعتها المفرطة. فإذا فرضنا أن هذا الجهاز يتحرك مخترقًا سرعة الزمان بسرعة تزيد

عن سرعتنا مائة ضعف أو أكثر، سندرك أن الجهاز بقطع دقيقتين كلها قطعنا نحن ثانية واحدة من زمننا.. وأنه بقطع الساعتين كلما قطعنا نحن دقيقة واحدة من زمنا، فكأن نسبة ظهوره لأعيننا ستكون جزءًا على مائة من ظهوره لأعيننا حين كان معنا في زمن وأحد فوق هذه المائدة.. وأظن أن هذا واضح!

ونظر إلى عيوننا المحملقة الفاغرة ثم أطلق ضحكة، وأراد أن يخفف عنا ذهولنا فقال:

– هل تحبون أن تلقوا نظرة على آلة الزمان التي أصنعتها؟

ونهضنا كلنا واقفين "كأنما يحركنا جميعا لولب واحد،.. فقادنا في دهليز طويل رطب إلى معمله، فإذا بنسخة كبيرة من ذلك الجهاز الصفر الذي رأيناه يختفي إمام أعيننا منذ قليل. وكانت بعض أجزاء هذا الجهاز من النيكل وبعضها الآخر من العاج، والبعض من البللور الطبيعي هو نوع نادر من الصخور.

وكان الجهاز في جملته يكاد يكون تامًا.. بيد أن الروافع لم تكن قد ركبت بعد..

وكان منظرها غريبًا.. فتناولت أحداها لا فحصها عن كثب، وخيل إلى أنها مصنوعة من الكوارتز.. وهو نوع من الصخور شديد الصلابة.

وسأله الطبيب مرة أخرى:

– قل لي.. هل أنت جاد تمامًا في هذه المسالة.. أم هي ألعوبة أخرى من ألاعيبك التي تتحفنا بها بين الحين والحين.. ومن قبل ذلك، الشبح المزعوم الذي أريتنا أباه في عيد الميلاد الماضي؟

فقال رحالة الزمن بكل رزانة وثبات:

– إني أنوي على متن هذه الآلة، عند الفراغ من تجهيزها أن اكتشف الزمن وأرتاد خوافيه ماضيًا ومستقبلًا.. فهل هذا الكلام واضح؟ أني لم أكن أقرب إلى الجد مني الآن!

وسكتنا لا ندري ماذا نقول.. ثم لمحت عيني فيلبي وهو يرنو إلي من فوق كتف الطبيب.. فغمز لي بحركة ذات مغزى، كأنه يقول لي:

– دعك منه!

والحقيقة أنني لا أظن أحدًا منا في تلك الليلة أمن بآلة الزمن المزعومة..

والحقيقة أن رحالة الزمن كان من ذلك الطراز الذكي من الناس الذي لا يثق الناس به لفرط ذكائه.. فهناك دائمًا ما يدعوك إلى الارتياب في أمره والإحساس بأنه لا يظهرك على جميع أفكاره ونواياه، وأنك معرض في أية لحظة لأن تجد نفسك واقعًا في فخ من فخاخه التي يخفي أمرها متظاهرًا بالبراءة والصراحة التامة..

فلو أن فيلبي مثلًا مر الذي قدم إلينا نموذج الجهاز وشرح لنا النظرية بألفاظ الرسالة وعباراته لكان أرتيا بنافي جدية كلامه أقل بكثير.. وهكذا تكون براعة المرء جانية عليه، أو يكون ذكاء المرء محسوبًا عليه.

ويسبب هذا الارتياب، كتم كل منا المسألة في صدره ولم يبح بها لأحد في الفترة الواقعة بين سهرة ذلك الخميس وسهرة الخميس التالي، فهذا هو موعدنا الأسبوعي على مائدته للعشاء معًا، وإن كانت غرابة الموضوع طبعًا لم تفارق أذهاننا لحظة واحدة طول ذلك الأسبوع.. وكل من يحاول بينه وبين نفسه أن يجد حلًا معقولًا للغز الجهاز الذي اختفى إمام أبصارنا. ولكن جهودنا وظنوننا على تباينها ذهبت إدراج الرياح.

أين ذهب؟

لما حل يوم الخميس التالي ذهبت كالعادة.. ولكني وصلت متأخرا فوجدت أربعة رجال أو خمسة مجتمعين في حجرة الجلوس، وكان الطبيب واقفًا أمام نار المدفأة وفي إحدى يديه ورقة، وفي يده الأخرى ساعته.. فتلفت حولي بحثًا عن حالة الزمن فلم أجده.. وقال الطبيب على الأثر:

– إن الساعة تجاوزت الآن منتصف الثامنة.. وأعتقد أنه من المستحسن أن نبدأ بتناول العشاء..

– وأين رب البيت؟

– الأمر غريب حقًا.. لابد أن عائقًا احتجزه عن الحضور في الوقت المناسب، وهو في هذه الرسالة يطلب مني أن أنوب عنه في الجلوس معكم إلى مائدة العشاء إذا لم يكن قد عاد إلى بيته في تمام السابعة.. ويقول أيضًا أنه سيوضح كل شيء عند حضوره..

فقال أحد الحاضرين، وهو رئيس تحرير صحيفة يومية معروفة:

– من المؤسف أن نترك طعام العشاء يفسد ويذهب رونقه بالانتظار..

قرن الطبيب الجرس إيذانًا ببداية الطعام...

وكان العالم النفساني والطبيب وأنا الذين كنا بين أعضاء السهرة الماضية.. أما الآخرون فكانوا رئيس تحرير تلك الصحيفة اليومية الذي أشرت إليه، وصحني آخر، وشخص خجول ذو لحية لم أكن أعرف من هو.. وفيما أذكر لهم بفتح هذا الرجل فمه ذلك المساء بكلمة واحدة..

وعلى المائدة كثرت التخمينات حول سببًا غياب الداعي.. وعندئذ قلت على سبيل المزاح:

– لعل المسئول عن غيابه رحلة من رحلاته في الزمن!

فأرهف رئيس التحرير أذنيه، واستفسر عن معنى هذا الكلام.. فتطوع العالم النفساني بإعطاء صورة مقتضبة للموضوع الذي شهدناه بأعيننا منذ أسبوع..

وفيما هو مسترسل في الشرح، انفتح الباب المفضي إلى الدهليز ببطء وبغير صوت.. وكنت أنا في مواجهة الباب فلاحظت ما حدث وقلت:

– مرحبًا.. ها هو أخيرًا!

وأنفتح الباب عندئذ على سعته وبرز أمامنا الرحالة.. وأطلقت صيحة دهشة...

فنظر الطبيب نحوه وقال:

– رباه!.. ماذا حدث بالله يا رجل؟

وحول الجالسون جميعًا أبصارهم نحو الباب المفتوح..

كان الرحالة في حالة تدعو إلى الدهشة حقًا، فمعطفه قذر مغطى بالغبار، وكماه ملطخان باللون الأخضر، وشعره مشعث دب فيه الشيب، أو نعله الغبار المتراكم.. لون شعر، فأصبح أقرب إلى اللون الرمادي. أما وجهه فكان شديد الشحوب، وفي ذقنه جرح كبير في طريقه إلى الاندمال وسحنته تنبئ عن الذهول والتداعي والمعاناة القاسية.

وظهر عليه التردد وهو واقف في فرجة الباب، كان ضوء القاعة الباهر أزاغ عينيه.. ثم دخل وهو يترنح ويعرج، فكانت مشينة أشبه بمشية المتبولين المتشردين الذين أدمت أقدامهم المسافات الطويلة التي قطعوها حفاة أو شبه حفاة..!

وحملقنا فيه صامتين.. في انتظار أن يبدد دهشتنا بالكلام، ولكنه لم يقل شيئًا.. بل جلس إلى المائدة وتناول كأسًا تجرعها عن آخرها دفعة واحدة.. ويبدو أنها جددت قواه قليلًا، فراح يجيل بصره في الجالسين إلى المائدة. ثم لاح على شفتيه شبح ابتسامته المعهودة..

وهتف به الطبيب:

– ماذا فعلت بنفسك يا رجل؟

– لا تقطعوا طعامكم بسببي.. أنا بخير.. سأشرب كأسًا أخرى، ثم أنهض وأغتسل وأغير ملابسي، ثم أعود إليكم لأوضح لكم كل شيء وأنا

آكل ما ستتفضلون بالإبقاء عليه من اللحم المشوي.. فإني جائع جوع الضواري!

وضع الرحالة كأسه ثم اتجه نحو الباب.. فلاحظت أنه لم يزل يعلو قليلًا وليس لقدميه وقع ينم عن الصلابة كالمعتاد، فنهضت واقفًا في موضعي، وتطلعت إلى قدميه وهو منصرف، فوجدتهما عاريتين تمامًا إلا من جورب مهلهل مخضب بالدماء!

وواراه الباب عني وعن سائر المدعوين حين أغلقه خلفه، ونازعتني نفسي أن ألحق به لأتبين أمره.. ولكني تذكرت في آخر لحظة أنه يكره أن يهتم أحد به، لأن فرط الاهتمام بأمره يزعجه جدًا...

وأخالني ذهلت عمن حولي نحو دقيقة تقريبًا.. كان فكري في خلالها يحاول جمع شتات العروض المتباينة، ولم أطراف الخيوط المتفرقة في هذا اللغز عسى أن يؤدي ذلك إلى نسج قصة معقولة تفسر ما حدث..

وأفقت من ذهولي هذا على صوت رئيس التحرير الذي كان جالسًا قبالتي على المائدة وهو يقول بنبرة منجمسة:

– سلوك شاذ من عالم مرموق!

فأدركت أنه بحكم العادة التي اكتسبها من مهنته يفكر في الموضوع الذي يشغل ذهني بلغة عناوين الصفحة الأولى وما تتطلبه من إثارة

صحفية.. فردني ذلك إلى عالم الواقع الذي يتمثل في مائدة العشاء الأنيقة ومن التفوا حولها من خيرة الناس..

ورفع الشاب الصحفي حاجبيه في دهشة، وقال متهكمًا:

– ما الحكاية بالضبط؟.. هل كان داعينا الفاضل مشغولًا عنا بهواية جمع البيض من أقفاص الدجاج وأعشاش الطيور؟..

واختلست أنا نظرة إلى العالم النفساني.. فقرأت في عينيه سورة مطابقة للخاطر الذي جال بفكري، وحلقت خواطري لتحوم حول حالة الزمن المسكين، وهو يصعد السلالم إلى مخدعه بخطواته العرجاء والألم يحز في قدميه ولا أعتقد أن أحدًا سواي لاحظ ما لاحظته عليه من دلائل ذلك العرج..

وكان أول من أفاق تمامًا من ذهوله هو صديقنا الطبيب الذي رن الجرس– فرحالة الزمن يكره أن يقوم الخدم حول المائدة أثناء العشاء– وطلب طبقًا ساخنًا. وكانت تلك الحركة إيذانًا لبقية المدعوين.. فأعمل رئيس التحرير الشوكة والسكين في قطعة اللحم التي أمامه وهو يزمجر. أما الرجل الصامت ذو اللحية، فاقتدى به في الأكل وإن لم تصدر عنه زمجرة مسموعة.. وأستأنف الباقون تناول الطعام، وتكلفوا تجاذب أطراف متثاقلة من الحديث كانت تتفكك فيسود الصمت بين لحظة وأخرى، وتبدو عندئذ علائم الحيرة واضحة على جميع الوجوه. وأخيرًا لم يطق رئيس التحرير صبرًا وصانع:

– هذه تصرفات عجيبة لا أفهم لها معنى! فهل لصاحبنا أوجه نشاط سرية يمارسها لمضاعفة دخله أو شيء من هذا القبيل..

واندفع لساني في حلقي فقلت:

– أكاد أجزم بأن لهذا السلوك صلة بموضوع آلة الزمان!

ورأيت الدهشة تطل من جميع العيون، ولم يعد هناك بد من التصريح.. فشرعت أدلى ببيان موجز عن سهرتنا السابقة في مثل هذا المكان، ولم يصدق الضيوف الجدد ما سمعوه.. وكان أشدهم إنكارًا وسخريةً رئيس التحرير، إذ قال:

– ما هذا التخريف؟ من الذي يستطيع أن يجوب الزمان؟ وهل يتسربل الإنسان بالتراب والوحل وسائر أنواع الأقذار لمجرد إقدامه على التمرغ في خرافة يقطع العقل باستحالتها؟

ولما سكتنا تساءل رئيس التحرير قائلًا:

– ما أتعس حظ أحفادنا! يبدو أن دنيا المستقبل لا تستخدم فيها الحمامات ولا فرشاة الملابس!

ولم يكن الصحفي الشاب أقل من رئيس التحرير إنكارًا وتسخيفًا لكلامي، وانضم إلى زميله الكبير في مهمته السهلة، وهي التهكم على الفكرة كلها من أساسها بلامبالاة وبلا احتياط أو روية.. وهي الصفات

الغالية على الصحفي الحديث الذي يعتبر مستواه في الجهل أساسًا صالحًا لتحريم أي فكرة علمية تعلو فوق ذلك المستوي..

وكان الصحفي الشاب يقهقه قائلًا لرئيس التحرير:

– ما أبدعها فكرة يا سيدي!.. أن تكتب في بداية أي برقية أو خبر: "لمراسلنا الخاص فيما بعد غد"، وبهذا نسبق جميع صحف العالم!

وإذا برحالة الزمن يعود إلى حجرة المائدة، وقد ارتدى ملابس السهرة المعتادة.. ولم يكن يبدو عليه أي أثر ينم عما وقع له من التغيير الذي أدهشنا، سوى نظرة زائغة بعض الشيء..

واستقبله رئيس التحرير ضاحكًا مقهقهًا في تفكه:

– كان أصحابك يقولون عنك أنك كنت مسافرًا في رحلة إلى أواسط الأسبوع القادم!.. فحدثنا من فضلك عن نتيجة السباق الكبير الذي سيجرى بعد ثلاثة أيام أو كم تتقاضى ثمنًا لهذا النبأ؟..

ولم يجب رحالة الزمن، بل قصد إلى مقعده الشاغر وهو ساكت. ولما جلس قال بهدوئه المعهود وهو يتلفت منقبًا بين الصحاف:

– أين نصيبي من اللحم المشوي؟ ما أجمل أن يغرس الإنسان شوكته مرة أخرى في قطعة لحم حقيقية!..

فصاح رئيس التحرير:

– نريد سماع القصة!

– لعنة الله على القصة!.. أريد شيئًا آكله!.. ولن أقول كلمة واحدة قبل أن تحصل خلاياي ومروقي على ما يلزمها من البروتين.. هذه القطعة كافية وشكرًا لك.. والآن قرب من الملح مني فضلك.

ولم أطق صبرًا فسألته:

– لا أريد منك إلا كلمة واحدة، هل كنت تجوب الزمن؟

فقال رحالة الزمن وفمه مملوء باللحم وهو يهز رأسه مؤكدًا:

– نعم!..

فقال رئيس التحرير:

– أنا على أتم استعداد لدفع شلن عن كل سطر من سطور المقال الذي تكتبه في هذا الموضوع، شلن من كل خمس كلمات!

ودفع رحالة الزمن كأسه بيده نحو الرجل الصامت ثم دق عليها بظفره وهو ينظر إليه، فأجفل الرجل وكأنه تنبه من شرود طويل، ثم صب للرحالة شيئًا من الخمر..

وساد الصمت بقية مدة العشاء، وكان الجو مشحونًا بالقلق.. أما أنا فكانت الأسئلة المتباينة تثب إلى شفتي فلا أردها عن الانطلاق إلا بصعوبة شديدة، واعتقد أن هذا هو حال المدعوين الآخرين جميعًا..

وحاول الصحفي الشاب أن يخفف من حدة التوتر برواية نوادر ونكت معادة، أما رحالة الزمن فانصرف كل الانصراف إلى عشائه وجعل يأكل بشهية الضواري..

وأشعل الطبيب سيجارة وراح يرقب الرحالة من بين أهدابه، وازداد وجوم الرجل الصامت وأكثر من تجرع الشمبانيا ليغرق فيها توتر أعصابه..

وأخيرًا دفع رحالة الزمن صحفته بعيدًا، ثم أجال بصره فينا وقال:

– أعتقد أنني يجب أن اعتذر.. والحقيقة إنني كنت في شدة الجوع، وقد مرت بي ظروف عجيبة للغاية..

وأخرج من جيبه سيجارًا قطع طرفه، ثم قال:

– ولكن هيا بنا أولًا إلى قاعة التدخين، فالقصة أطول من أن تروى أمام أطباق فيها بقايا طعام...

ورن الجرس، ثم قادنا إلى القاعة المجاورة.. وجلس كل منا في مقعد وثر، واضطجع الرحالة في مقعده وخاطبني قائلًا وهو يشير إلى الضيوف الثلاثة الجدد:

– هل أخبرت بلانك وداش وتشوز بخبر الآلة؟

فصاح رئيس التحرير:

– ولكن المسألة كلها هراء وتخريف..

– لا قدرة لي الليلة على المجادلة، وليس عندي مانع من أن أروي لكم القصة على علاتها.. أما المجادلة فلا أستطيعها. ولذا سأقص عليكم ما حدث لي أن شئتم ذلك. ولكن بشرط أن تتعهدوا بعدم المقاطعة، فأنا أريد أن أنفض تلك الحكاية عن صدري.. وبي إلى ذلك حاجة شديدة، وإن كان معظم ما في القصة سيبدو لكم ضربًا من الأكاذيب. فليكن إذن؟!.. إنها مع هذا قصة صادقة، كل كلمة فيها هي عين الصدق.

وسكت الرحالة قليلًا ثم قال:

– كنت في معملي في الساعة الرابعة بعد الظهر.. وفيما بين الساعة الرابعة ولحظة الدخول عليكم عشت ثمانية أيام لم يعش يومًا من قبلها أي إنسان من قبل! إني أكاد أسقط من شدة الإعياء.. ومع هذا لن يغمض لي جفن حتى أسرد على مسامعكم ذلك الأمر وبعدئذ سأذهب إلى فراشي توًا، ولكن لا تقاطعوني وأنا أتكلم.. لا مقاطعة!

فقال رئيس التحرير:

– وهو كذلك!

وضحكنا كلنا في إثره وقلنا:

– وهو كذلك!..

وبهذا بدأ رحالة الزمن قصته كما سأسجلها في هذه الصفحات، بعد أن اضطجع في مقعده.. وكان يتكلم بلهجة الرجل الذي نال منه الإجهاد

الشديد في بداية الأمر ثم لم يلبث أن تحمس لما يقول شيئًا فشيئًا. وأني لأشعر وأنا أسجل كلامه بعجز القلم- وعجز حامل القلم قبل كل شي- عن التعبير عن شحنة الحماسة والقوة والإخلاص التي في صوته، والقارئ مهما حصر انتباهه في السطور التي سيقرؤها لن يستطيع على كل حال أن يرى كما رأيت وجه قائلها حين نطق بهذه الكلمات وقد ازداد شحوبًا على شحوب.. ولن يصافح أذنيه وقع ألفاظه..

وكنا نحن الحاضرين نتبادل النظرات بين الحين والحين في الفترة الأولى من القمة، ثم كففنا عن ذلك واستأثر باهتمامنا وأنظارنا وجه محدثنا رحالة الزمن..

القسم الثاني

رحلة لا نظير لها

الانطلاق

قال رحالة الزمن وهو ينفث دخان سيجاره:

"أخبرت فريقًا منكم في يوم الخميس الماضي بنحوي المبادئ الأساسية التي بنيت عليها مشروع آلة الزمان.. ثم أطلعتهم على تلك الآلة نفسها ولم يكن قد انتهى صنعها تمامًا.. ولم تزل الآلة هناك. وقد عادت الى احتلال مكانها في العمل، بعد أن نالت منها مشقات السفر بعض الشيء والحق يقال.. وانكسر قضيبا من القضبان العاجية والتوى مسمار نحاس، أما بقية الجهاز فلم يصبه عطب...

"وكان في حسباني يوم الخميس الماضي، أني سأفرغ من صنع الجهاز تمامًا في اليوم التالي أي يوم الجمعة. ولكن عندما انتهيت من التجميع تقريبًا يوم الجمعة، اكتشفت أن قضيبًا من القضبان المصنوعة من النيكل أقصر مما ينبغي بمقدار بوصة بالضبط.. فكان لابد من إعادة صنع هذا القضيب. وكان هذا هو السبب في تأخير الفراغ من الجهاز حتى صباح اليوم.. وكانت الساعة العاشرة صباحًا بالضبط، عندما تمت ولادة أول آلة الزمان في العالم، وأقبلت عليها أعيد فحص أجزائها الدقيقة، وقمت بتربيت جميع اللوالب والقضبان والمحاور ثم جلست في المقعد المخصص للراكب. وانتابني دوار خفيف.. وأحسب أن شعوري عندئذ كان أشبه شيء بشعور المنتحر حين يضع مسدسه على جمجمته، وأصبعه على

الزناد، وتتضارب داخل جدران رأسه إلا في الأسئلة عما سيكون من أمره!..

"وضعت إحدى يدي على رافعة الانطلاق، وقبضت باليد الأخرى على الفرملة.. وضغطت باليد الأولى قليلًا ولكني حركت اليد الأخرى في الحال لأوقف الحركة. وانتابني دوار شديد، وأحسست بما يحس به من يرى في الكابوس أنه يسقط من مكان شاهق. ولكني عندما نظرت فيما حولي رأيت العمل على ما كان عليه تمامًا.. فهل ترى حدث شيء؟

"وخيل إلى أن ذهني غرر بي، وعندئذ حانت مني نظرة نحو ساعة الحائط. وكانت قبل ذلك بلحظة– لحظة واحدة على حسب اعتقادي– تشير إلى دقيقة أو دقيقتين بعد العاشرة، فإذا بعقربيها يشيران إلى ما بعد الثالثة بنصف ساعة تقريبًا!

"واستنشقت نفسًا عميقًا وأطبقت أسناني جيدًا استجماعًا لرباطة جأشي، ثم ضغطت على محرك السرعة بيدى كلتيهما.. فانطلقت الآلة انطلاقًا مفاجئًا. وتميع منظر العمل من حولي ثم أطبقت عليه الظلمة تمامًا، ودفعت محرك السرعة إلى أقصاه. فأطبق الليل في غمضة عين؛ وبعد لحظة واحدة طلع الغد: وانقضى الغد في لمحات ثم أطبق ليله بظلامه فلم يلبث إلا هنيهة حتى تبلج منه يوم آخر تلاه ليل ثم نهر ثم ليلًا.. وكان الأصوات المبهمة تطن في أذني، وانضباب يتخلل تلافيف دماغي.. وأخشى ألا يكون هناك إحساس واضح عندي بذلك السفر الفذ الذي لم يسبقني إليه

إنسان في طوايا الزمن. وهو على العموم إحساس سمج غير مستحب، خلاصته شعورك بأنك مندفع إلى الأمام.. ولا حياة لك في تلك الحركة السريعة التي لا تتوقف ولا تلوى على شيء.

"ولم يكن هذا هو كل ما هناك، لأن إحساسي في الواقع لم يكن صرفًا، بل هو خليط غريب من عناصر متناقضة.. فكنت في الوقت نفسه أتوقع في فزع أن ينتهي هذا الاندفاع الأعمى بارتطام يمكن أن يقع في أي لحظة. وكان توالي الليل في أعقاب النهار والنهار في أعقاب الليل.. لا النهار يدرك الليل، والليل لا يدرك النهار.. أشبه بخفقات متواليات سراع من جناحي نسر أسود حالك السواد في خوافيه ريشات بيضاء، ولم يلبث كل أثر لجدران المعمل وأثاثه من حولي أن أختفي من عياني ورأيت أمامي الشمس في كل ضخامتها تتخلى عن وقارها المعهود وتقطع قبة السماء في وثبات كأنها هرولة مذعور! فتقطع ما بين المشرق والمغرب في دقيقة.. وتتوارى دقيقة أخرى لتبرز من الشرق وهكذا دواليك، ورأسي يطن بفكرة مزعجة: أن كل دقيقة في هذا الحساب تعني يومًا انسلخ من عمر الأرض.

"وخطر لي ذات لحظة أن العمل لابد وأنه تقوض بفعل انطلاقة الآلة وأنني لهذا السبب في العراء، وثقل ضغط الهواء على صدري فأحسست باختناق، كما كان توالي المناظر الخاطفة يسبب لعيني آلامًا جسامًا.. ثم استطعت أن ألمح في فترات الظلام القصيرة المتوالية شكل القمر وهو يتغير بالزيادة وبالنقصان في دورات سريعة منتظمة، فما أسرع ما يكتمل بدرًا

ليرتد كما كان هلالًا فمحاقًا! والنجوم في مساراتها كم بدت لي سريعة ليس فيها شيء من وقار حركاتها المألوف. ثم ازدادت سرعة الآلة فتداخلت حركة النجوم وبدت من فرط اندفاعها في مساراتها وكأنها خطوط مضيئة متصلة متشابكة. وتداخل الظلام والنور، فبدت السماء لي على طول المدي رمادية اللون ليس فيها بياض بين ولا ظلام حالك. وسرعة الآلة لا تكف بعد ذلك كله عن الازدياد..

"ولما نظرت إلى أسفل رأيت المروج والأشجار في حال لم ترها عين إنسان.. رايتها تنمو وكأنها منبثقة من باطن الأرض يانعة الخضرة ثم إذا بها صفراء، ثم تستعيد خضرتها وبين لحظة وأخرى يدركها الشيب ثم تمسي هشيمًا تذروه الرياح!

"والصروح الشواهق والعمائر كنت أراها تتداخل ثم تتهادى فإذا بها بين لحظة وأخرى إثرًا بعد عين، وكأنما هي حلم بددته اليقظة!

"كل شيء على وجه الأرض كان يتغير بسرعة، بتكون وينمو ويفسد في لحظات قلائل تحت نظري.. كما ألقيت نظرة على عداد السرعة فرأيته يشتط في التسجيل، ثم لاحظت أن مدار الشمس ينحرف أمام بصري بين دقيقة وأخرى.. فاستنتجت أن سرعتي أمست أكثر من سنة في الدقيقة. وفي مدى الدقيقة الواحدة كنت أرى الثلج يغطى وجه الأرض، ثم يجلو عنه فتكتسي الربى والوهاد بخضرة الربيع اليانعة ثوان معدودات ثم يطغى الجليد على الدنيا مرة أخرى!..

"ولاحظت بعد قليل ارتجافًا في الآلة لم أعرف له سببًا.. ولكن حالتي الذهنية لم تسمح لي بالتفكير في شأنها، لأن نوعًا فريدًا من الجبن ازدادت سيطرته على تفكيري، فلم يعد لي تفكير إلا بالإيقال في غياهب المستقبل...

"ولم أفكر إطلاقًا في التوقف، لأن هذه الإحساسات الفذة التي لم يمر بها إنسان قبلي كانت تسكرني، ثم أضاء في ذهني فجأة خاطر غريب.. أدركت أن رحلتي بهذه السرعة لن يكون لها محصول ثقافي.. فمن المستحيل أن أتبين ما طرأ على البشرية من تقدم أو تأخر بفعل السنين المتوالية والأرض والشمس تدوران من حولي بهذه السرعة الجنونية التي تخفي جميع المعالم والتفاصيل!

"وسار اهتمامي كله موجهًا نحو مصير حضارتنا ومدنيتنا.. أريد أن أعرف ذلك المصير؟.. وكل ما استطعت أن أراه عبارة عن أبنية أعلى وأضخم من جميع ما عرفه زماننا من مروح، ولكني لم أستطع أن أتبين كنه تلك الأبنية وموادها.. فما كانت بسبب السرعة الفائقة إلا مزيجًا من الضباب والوميض ورأيت ألوانًا من الخضرة أينع وأتمنى من كل ما عهده في زماننا تنتشر على الروابي وفي السهول، ولا تقوى عليها أعاصير الشتاء وصقيعه، تعلمت أن مئات السنين القادمة حملت للإنسان مزيدًا من السلطان على قوى الطبيعة. وبدت لي الأرض من خلال قناع الشباب الذي وضعته السرعة البالغة على نظري أشد جمالًا مما هي الآن..

"كان ذلك أقصى ما استطعت أن أراه عن يقين، وما أسره وأقله. فزهدت نفسي في الاسترسال، وبدا عقلي يفكر في إيقاف الآلة..

"وواجهت على الفور مجازفة خطيرة.. فربما وجدت في الفضاء مادة تؤذيني أو تؤذي الألة عند الوقوف، ولم يكن أمر هذه المادة المجهولة يعنيني وأنا مندفع بتلك السرعة الفائقة، ولكن الوقوف مسالة أخرى. وأين سيكون وقوفي، وفي أي ظروف؟ وما هي الحالة الكيماوية التي تترتب على ذلك الوقوف؟ ليس من المحتمل أن يحدث انفجار يقذف بي أنا وجهازي المبتكر خارج جميع الأبعاد الممكنة.. إلى المجهول؟

"لا أنكر أن هذا الغرض كان قد خطر لي مرارا وتكرارًا وأنا أصنع بيدي تلك الآلة، ولكني كنت أواجه فكرة ذلك الخطر بصدر رحب لأنه جزء لابد منه من عناصر ذلك المشروع الكبير.. ولا بد مما ليس منه بد.. كما يقولون!

ولكن هذا كله كان كلامًا لا ضرر منه ونحن على الأرض. أما في الفضاء، وقد صار الخطر وشيك الوقوع، والمصير شبه محتوم.. فالخوف يزعزع أعماقي ولا أجد سبيلًا إلى استرجاع شيء من رباطة جأشي!

"كنت في موقف لم يتعرض له أحد من قبل، فلا يمكن أن تؤنسني سوابق التجربة.. كل شيء كان غريبًا.. وهاوية السقوط كانت مخيفة ولوالب الآلة تحدث صريرًا يزيد تمزيق أعصابي، فقلت لنفسي إنني لا يمكن أن أتوقف.. وأن الآلة مهما فعلت لن تكف عن الحركة المندفعة العمياء.

"وسبب لي هذا الخاطر نوعًا من الرعب والجنون، فما أدري وأنا أقبض يدي كلتيهما على الرافعة الأخرى وأحركها بكل قوتي.. فإذا بالآلة تدور حول نفسها ثم إذا بها تشق بي أجواز الفضاء رأسًا على عقب!

"وسمعت دويًا مثل قصف الرعد يكاد يخرق صماخ أذني.. ولعلني غبت عن الوجدان لحظة، وأفقت على صوت فحيح شديد يحيط بي من كل صوب. وبعد قليل شعرت إنني استتر فوق شيء طري، وتبدد الضباب شيئًا فشيئًا عن عيني فتبينت موضعي. كنت جالسًا على عشب غزير أمام آلتي المقلوبة، وزال الطنين عن أذني رويدًا، وأنا أجيل البصر فيما حولي لأجدنني وسط بستان فيه مرج وتحيط به شجيرات، وكان المطر ينهمر فيبلل ثيابي وينفذ إلى جلدي وعظامي المقرورة، فقلت بغيظ:

– يا له من استقبال بارد لرجل قطع عددًا لا يحصى من الأعوام كي يصل إلى هنا!

"ثم أدركت أنه من البلاهة بمكان أن أترك الماء يبللني بهذا الشكل.. فنهضت قائمًا ونظرت فيما حولي، فإذا شكل ضخم جدًا يبدو أنه منحوت في الصخر الأبيض، ولم أستطع أن أتبين فيما عدا ذلك شيئًا آخر يدلني على مكان هبوطي..

"ومن الصعب أن أحدد لكم كنه إحساسي، وأنا أرى أعمدة من البرد والجليد تتساقط من السحابة القريبة نسبيًا من سطح الأرض. وبعد قليل خفت كثافة الجليد المتساقط فاستطعت أن أرى الشكل الصخري

الأبيض بمزيد من الوضوح وكان عاليًا، أعلى بكثير من الشجرة الفضية القائمة بجواره. وهو منحوت من المرمر وشكله أشبه بأبي الهول المجنح.. ولكن جناحيه مبسوطان على سعتهما عند الجانبين كأنه يهم بالتحليق..

"أما القاعدة التي أقيم عليها ذلك التمثال العجيب، فيبدو لي أنها مصنوعة من البرونز وعليها طبقة سميكة من الصدأ الأخضر. واتفق أن كان وجه التمثال إلى ناحيتي، فخيل إلى أن العينين ترقبان كل حركاتي وسكناتي، وخامرني إحساس بأن شفتيه يتلاعب عليهما شبح ابتسامة!

"وكان واضحًا أن التمثال عتيق، وأن العوامل الجوية فعلت فيه على مر الزمن فعلها.. فكان يسير وكان توالى الضوء والظلام بتلك السرعة، شبيهًا في تأثيره السيء بالآثار التي تركها المرض الطويل على الكائن الحي ووقفت أتأمل ذلك التمثال برهة قصيرة، قد تكون نصف دقيقة وقد تكون نصف ساعة.. فبدا لي التمثال وكأنه يتقدم تارة ويتراجع تارة أخرى كلما ازدادت كثافة الجليد أو قلت..

"وأخيرًا خف سقوط الجليد حتى أوشك أن ينعدم، وبدت في صفحة السماء تباشير طلوع الشمس، وعدت أنظر إلى التمثال الأبيض الرابع واستولى على كل ما تجمع في رحلتي من الفزع والمخاوف فجأة، ترى هل هذا نذير بما حدث للبشر؟ أي قارعة من المستحيل أن تقع لبني الإنسان؟ ما المانع من أن تكون البشرية قد فقدت صفاتها الإنسانية وانقلبت إلى كائنات ليس لبسها حدود وليس اللحية لديها وجود؟

"أنني حري في هذه الحالة أن أبدو أقوم ذلك الزمان المستقبل بقية عجيبة من سلالة متوحشة منقرضة فيقررون حرصًا على الصالح العام أن يقتلوني!

"وبدأت تلوح أعيني مناظر غريبة.. معظمها مبان وأشكال ضخمة وأعمدة شاهقة وغابات تكسر سفوح التلال. ولكن الخوف سيطر على مشاعري، ولم يدع لي الفزع فرصة للتفكير.. فاندفعت كالمجنون نحو آلة الزمان، وحاولت في أستماته أن أصلح من شأنها. وبزغت الشمس فتلاشى كل أثر للجليد المتساقط، وبدا كل شيء على مرمى البصر واضحًا، فازدادت الأبنية والأشياء فخامة وهولًا، فجعلت انتفض من الخوف كالعصفور بلله القطر، ووجهت همي كله إلى إصلاح الآلة إلى أن تم لي ذلك فامتطيت صهوتها وهممت أن أدير محركاتها. وعندئذ راجعني شيء من استطلاعي القديم وقد شارفت الأمان، فألقيت نظرة أخيرة على عالم المستقبل البعيد، وعندئذ تبينت خلال فتحة مستديرة في قمة جدار أقرب الأبنية مجموعة من الأشكال مرتدية أثوابًا فخمة، وكان واضحًا أنهم رأوني، فقد كانت وجوههم إلى ناحيتي. ثم سمعت أصواتًا تقترب مني، ورأيت بين الأشجار القريبة من التمثال وجوه أشخاص يركضون صوبي..

سلالتنا البعيدة

"رأيت أحد أولئك الأشخاص الذين يجرون في اتجاهي قادمًا من بين الأشجار، وهو يخترق ممشى فرعيًا يؤدي مباشرة إلى الأرض المعشبة التي كنت واقفًا فيها داخل آلتي..

"ولم يكن هذا الشخص ضخم الجثة، بل هو على العكس قصير القامة، ولعل طوله لا يزيد على أربعة أقدام.. متسربل بزي قرمزي اللون، ومتمنطق حول خاصرته بحزام من الجلد، وفي قدميه نمل، وساقاه عاريتان إلى الركبتين، ورأسه عار كذلك..

"وبعد أن فرغت من ملاحظة هذه الأشياء جميعًا، فطنت لأول مرة إلى شدة سخونة الهواء.. ولفت نظري جمال ذلك الشخص بدرجة فائقة، ورشاقته الواضحة. ولكن استرعى انتباهي في الوقت نفسه فرط هزاله ودقة تكوينه.

"كان وجهه شديد الاحمرار، يذكرني بذلك النوع من الجمال الذي يضفيه السل أحيانًا على مرضاه. وكانت نظرة واحدة إليه كافية كي أستعيد على الفور الطمأنينة إلى نفسي، فرفعت يدي عن أزرار المحرك وروافعه التي كنت متشبثًا بها وأنا على أتم أهبة للانطلاق..

وبعد لحظة كان كل منا أمام الآخر وجهًا لوجه، أنا وفي مواجهتي ذلك الكائن الهش الضئيل ابن المستقبل البعيد.. وأدهشني على الفور أنه لم يظهر أي علامة من علامات الخوف، ثم التفت إلى شخصين آخرين تبعاه عن كثب، وخاطبهما بلغة غريبة لاحظت أنها شديدة العذوبة تنساب مقاطعها انسيابًا..

"وأقبل آخرون غير هؤلاء، فلم تمض إلا برهة حتى تجمع من حولي نحو عشرة من هذه المخلوقات الصغيرة ووجه أحدهم الخطاب إلى.. ومن العجيب أنه خطر بذهني عندئذ أن صوتي إذا تكلمت سيكون أعرض وأعلى وأعمق من احتمالهم وتصورهم. ولذا اكتفيت بهز رأسي، ثم أشرت إلى أذني وهززت رأسي مرة أخرى.

"وتقدم الشخص الأول مني خطوة، وبعد تردد قليل لمس يدي.. وعندئذ شعرت بأنامل أخري صغيرة لينة توضع على ظهري وكتفي.. كانوا يريدون أن يتيقنوا من حقيقتي، ويستوثقوا من أنني كائن فعلًا ولست وهمًا زخرفه خيالهم.. ولم يكن في ذلك المسلك ما يبعث على الخوف إطلاقًا. والحقيقة أنه لم يكن في هؤلاء القوم الصغار الملاح ما يريب، بل كان فيهم على العكس شي ما يبعث على الطمأنينة والثقة.. شيء ما لعله تلك الرشاقة الدمنة أو روح الطفولة البريئة وهي ماضية على سجيتها وفضلًا عن هذا كان تكريتهم يبدو هنا ضعيفًا حتى لقد خيل إلى إنني أستطيع أن أطوح بالعشرة المحيطين بي وكأنهم دبابيس، بمجرد دفعة هينة بظاهر يدي،

ولذا تركتهم يتحسسون جسمي كما يشاءون، ولكني أتيت بحركة مفاجئة لتحذيرهم عندما رأيت أيديهم الصغيرة الحمراء تتحسس آلة الزمان ولحسن طالعي أنني فكرت قبل فوات الأوان في خطر كنت قد نسيته من قبل، فمددت يدي وفككت الرافعتين الصغيرتين اللتين تستخدمان في إدارة المحرك.. ودسستهما في جيبي، ثم استدرت نحو القوم لأرى ماذا أستطيع أن أصنع في موضوع التفاهم معهم..

"ولا تأملت ملامح وجوههم بمزيد من الإمعان، تبينت خصائص كانت غائبة عن بالي في ملاحتهم التي تشبه ملاحة التماثيل الصغيرة المصنوعة من الخزف.. تلك التماثيل التي يتفنن أهل درستون منذ أجيال في صنعها.. فشعرهم المتموج ينتهي بشكل حاسم عند الرقبة والخد، وليس هناك أدنى أثر لشعر أو زغب فوق صفحة الوجه.. أما آذانهم فكانت دقيقة الشكل بدرجة مفرطة وأفواههم صغيرة وذات شفاء نحيلة شديدة الاحمرار، وأذقانهم الصغيرة تبرز من وجوههم بحيث تنتهي مدببة تمامًا، وعيونهم واسعة فيها دماثة.. وخيل إلى أن نظراتهم خالية من الاهتمام الشديد الذي كنت أتوقعه من جانبهم.

"وطال وقوفهم وهم لا يحاولون التفاهم معي.. بل يكتفون بالوقوف والتطلع باسمين، ويتبادلون فيما بينهم التعليقات بأصواتهم الناعمة الرخيمة، فقررت أن أضع حدًا لهذا الصمت بيننا، وبدأت أنا بالتفاهم على قدر الاستطاعة، فأشرت إلى آلة الزمان ثم إلى نفسي وترددت برهة لا أدري

كيف أعبر لهم بالإشارة عن معنى الزمان، فأشرت نحو الشمس، وعلى الفور تقدم شخص صغير جميل منهم يجمع في ثوبه بين اللونين الأبيض والقرمزي وقلد إشاراتي: ثم أدهشني بتقليد صوت الرعد.

"وانتابهم الذهول لحظة مع أن مضمون إشارته كان واضحًا تمام الوضوح.. ولكن ذهولي كان مصدره أن سؤالًا طرأ على ذهني على الفور: هل هؤلاء الناس بلهاء؟

"ولا يمكن أن تتصوروا كيف استولى على هذا الخاطر، و "أورثني" الهم، فإن اعتقادي على مدى الأيام أن أبناء سنة نيف و ٨٠٢٠٠٠ س يكونون متقدمين علينا تقدمًا لا يتصوره العقل سواء في المعرفة أو الفن أو سائر الأمور الأخرى.. ولكم أن تتصوروا فجيعتي حين أرى بعيني رأسي أحد هؤلاء المستقلين يوجه إلى سؤالًا يدل على أن مستواه العقلي يضارع المستوى العقلي لطفل من أطفالنا في هذا العصر لا يتجاوز الخامسة من عمره!!

"كان هذا الإنسان يسألني أن كنت قد أتيتهم قادمًا من الشمس في عاصفة رعدية! وملأت خيبة الأمل والحسرة جوانب نفسي.. وشعرت عندئذ أنني أجهدت نفسي في بناء آلة الزمان بغير طائل يستحق ذلك العناء..

"وأومأت برأسي وأشرت إلى الشمس، ثم حشدت ثوتي كلها في حنجرتي وزارت مقلدًا قصف الرعود فافزعهم صوتي وتراجعوا مقدار خطوة أو خطوتين ثم انحنوا ولم يلبث أن تقدم أحدهم نحوي ضاحكًا وهو يحمل

طوقًا من أزهار جميلة لم أر في حياتي شيئًا من نوعها، وأشار معبرًا عن رغبته في تطويق عنقي بها...

"ولاقت الفكرة استحسانًا أعربوا عنه بتصفيق منغم لطيفًا.. وعلى الفور أخذ كل منهم يجري هنا وهناك ليجمع الأزهار من بين الأعشاب، ثم يقذفونني بها ضاحكين إلى أن كاد يخنقني العبير.. ولن يكون في وسعكم وأنتم لم تروا بأعينكم ما رأيت بعيني، أن تتصوروا مدى الطرافة والتجديد والرقة التي اكتسبها استنبات الزهور في تلك المئات من السنين...

"وبعد أن أخذوا حظهم من ذلك اللهو الجميل، اقترح أحدهم أن يقوموا بعرض طرفتهم التي عثروا عليها في أقرب مبنى.. وهكذا اقتادوني بعيدًا عن أبي الهول المنحوت من المرمر الأبيض، وكان يخيل إلى أنه يراقبني طول الوقت بابتسامة محيرة.. وسرعان ما تبينت وجهتهم، لأنهم كانوا يسيرون بي صوب صرح ضخم رمادي اللون مبني من الصخر المنقوش..

"وفي الطريق تواردت على ذهني تنبؤاتي القديمة المتفائلة عن مستقبل يزدهر فيه العقل والعلم، ويزداد فيه وقار الإنسان مع تقدم الفهم لأسرار الكون..

ووجدت لهذه الذكرى أثرًا ملطفًا من جدية الوقف إلى حد كبير...

ولذلك المبنى مدخل ضخم وهو في جملته مترامي الأرجاء.. وكنت بطبيعة الحال مشغولًا على الخصوص بتكاثر عدد الجمع الذي يتبعني من هؤلاء الأقوام الصغار.. ومشغول في الوقت نفسه بتلك البوابات الكبيرة

المفتوحة، وكأنها أفواه هائلة تتثاءب ومن داخلها عالم تملؤه بالنسبة لي الظلال والألغاز..

"وكان إحساسي العام بالعالم الذي رأيته من فوق مستوى روس هؤلاء القوم أنه مروج مترامية الأطراف تنتشر فيها الأشجار الجميلة والأزهار.. فكأنها حديقة كبيرة لم ينبت فيها العوسج ولا الأعشاب التي كخنق النبات المترف النافع، ولاحظت نوعًا من الأزهار الطويلة البيضاء الغريبة الشكل يبلغ عرض كل بتلة من بتلاتها "أوراق الأزهار" نحو قدم.. وهذه الأزهار البيضاء تنمو هنا وهناك بغير انتظام كأنها أزهار برية، ولكني لم أفحص أي زهرة منها في تلك الآونة عن كثب.. وأما آلة الزمان فتركت ملقاة على العشب.

"ولاحظت عند اقترابي من بوابة البناء أن ذلك القوس الصخري الضخم حافل بالنقوش، ولكني بالطبع لم أتأمل تلك النقوش بتمعن.. وأن كان قد خيل إلى إنني أرى أشكالًا تذكرني بالزخارف الفينيقية وأدهشني أن تلك الزخارف بها تصدعات كثيرة عميقة وأن العوامل الجوية قد تركت فيها آثارًا سيئة..

"واستقبلني على أعتاب البناء بضعة أشخاص آخرين ثيابهم أزهى وأكثر رواء من القوم الذين أتوا إلى حيث حطت مركبتي.. ودخلنا وأنا أبدو في وسطهم بثيابي العصرية وضخامتي والأزهار المحيطة بعنقي كائنًا عجيبًا يباين تمام المباينة أعضاء الموكب ذوي الثياب البراقة والقدود

الضئيلة والضحكات الساحرة الرخيمة والحديث المرح الذي ينساب في الأذن كالخمر المسكرة أو الموسيقى العذبة...

"وأفضى ذلك المدخل الضخم إلى قاعة لها ستائر بنية اللون، وسقفها المرتفع تحجبه الظلال.. ونوافذها بعضها به مصاريع من الزجاج الملون والبعض الآخر بشير مصاريع بحيث تسمح بدخول ضوء ملطف.. وأما الأرض فكانت مصنوعة من كتل فخمة من معدن أبيض شديد الصلابة، وأصر على كلمة كتل لا صفائح لأن السهم كان باليًا من كثرة الاستعمال غدوًا ورواحًا أجيالًا في إثر أجيال، مما أحلت أخاديد عميقة في الممرات المطروقة.. وهذه الأخاديد تنبئ عن سمك تلك الكتل التي رصفت بها الأرض..

"وكان يعترض طول القاعة عدد لا يحصى من الموائد المصنوعة من الصخر المصقول، وارتفاعها عن الأرض لا يزيد على قدم واحدة.. وفوق هذه الموائد أكوام من الفاكهة، عرفت في بعض أنواعها مشتقات من فصيلة البرتقال والكرز، ولكن معظم الأنواع كانت غريبة عني تمامًا!

"وبين الموائد تناثر عدد هائل من الوسائد والحشايا، جلس أعضاء الموكب عليها واخذوا يشيرون إلى كي أحذو حذوهم.. ومن غير مراعاة لأي نوع من أنواع التكلف للأصول المعروفة لنا، شرعوا يأكلون تلك الفواكه بأيديهم ويلقون القشور والنوى وما إلى ذلك داخل الفتحات المستديرة التي على جوانب الموائد..

ولم أضيع وقتًا طويلًا في التردد، بل حذوت حذوهم لأني كنت أشعر بوطأة العطش والجوع.. وأثناء تناول الطعام أخذت أتفحص القاعة على مهل ولعل أهم ما لفت نظري لأول وهلة هو مظهر الإهمال والتلف.. فزجاج النوافذ تعلوه أوساخ كثيرة وبقع طال عليها الأمد وإن كان مصنوعًا في أشكال هندسية بارعة وهناك ثغرات من أثر التحطيم في مواضع كثيرة، والستائر تعلوها طبقات كثيفة من الغبار، ثم لفت نظري أن زاوية المائدة الرخامية القريبة مني مهشمة.. ومع ذلك فإن الطابع العام للقاعة يدل على الفخامة والبلخ والأبهة.

"وكان عدد من يتناولون الطعام لا يقل عن مائتين.. ومعظمهم أقرب ما يمكن من موضعي، وعيونهم ترمقني باهتمام وتومض من فوق الفواكه التي يقضمونها بأسنانهم، وجميعهم يرفلون في أكسية متباينة الألوان ولكنها كلها على السواء مصنوعة من مادة واحدة حريرية الملمس بيد أنها متينة.

وقد اكتشفت فيما بعد أن الخيل والماشية والأغنام والكلاب قد حلت حذو الديناصور وما إليه من الحيوانات البائدة، فانقرضت سلالتها.. ولكن الفواكه كانت لذيذة جدًا وكثيرة الأنواع. وكنت في البداية أتعجب لغرابة أصنافها ولغرابة الأزهار التي أراها ولكنني بمرور الوقت ألفت منظرها وعرفت منابتها".

لغة جديدة

"وعلى كل حال، بمجرد أن أشبعت نهمي وعطشى بدرجة معقولة، بدأت تساورني فكرة تعلم لغة هؤلاء القوم.. وكان ذلك طبعًا أول شيء يجدر بي أن أوليه عنايتي. وكانت الفواكه التي أمامي موضوعًا مناسبًا لأول درس، فتناولت إحدى الثمار ورفعتها أمام وجهي في الهواء، وبدأت استخدم الأصوات والإشارات في السؤال عن اسمها.. ووجدت صعوبة كبيرة في توصيل مرادي إلى أذهانهم، وقوبلت محاولاتي الأولى بنظرات الدهشة والضحك المتوالي. ولكن سرعان ما بدا على شخص أشقر الشعر منهم أنه فهم مرادي ونطق باسمه، وبدأت بينهم ثرثرة طويلة تعليقًا على مسلكي وتوضيحًا له..

فكانت محاولتي وصوتي القوى أن أخرج مقاطع لغتهم اللطيفة الرقيقة مدعاة لمرحهم وطربهم.. ومع ذلك زعمت لنفسي أنني معلم كبير وسط مجموعة من الأطفال المشاغبين. ومضيت أسأل عن أسماء الفواكه الأخرى واحدة واحدة وأردد الكلمات، إلى أن وعيت نحو عشرين اسمًا على الأقل.. ثم انتقلت إلى أسماء الإشارة، ثم فعلًا "أكل"..

"وكان التقدم بطيئًا شاقًا، وسرعان ما شعر الأقوام الصغار بالتعب ورغبوا في التخلص من أسئلتي.. فقررت أن أخضع لحكم الضرورة وأتركهم

لهواهم على أن أتلقى دروسي في مقادير صغيرة وفترات قصيرة حتى أتجنب أن أضجرهم...

"وعندما انتهى الطعام، وانتهى درس الأول.. لاحظت أن معظم من كانوا حولي في البداية قد انصرفوا. ومن الغريب أنني قابلت عدم اكتراثهم بمثله، فلم أعد أحسب اللياقة معهم حسابًا.. فتركت القاعة بعد أن شبعت وخرجت إلى العراء. وهناك رأيت أفواجًا بعد أفواج من هؤلاء القوم، وكانوا يفتنون أثري إلى مسافة قصيرة وهم يتجاذبون الحديث ويضحكون من منظري ثم يبتسمون لي بمودة ويتركونني إلى شأن آخر..

"وكان هدوء المساء قد شمل، عندما ما خرجت من القاعة والشمس على وشك المغيب. وكان كل شيء يبدو في نظري غريبًا مختلفًا تمامًا عن العالم الذي أعرفه.. حتى الأزهار، وكان البناء الكبير الذي غادرته قائمًا عند سفح يخترقه نهر عريض...

"وقررت أن أصعد قمة ربوة تبعد نحو ميل ونصف لألقي نظرة على كوكبنا سنة ٢٧٠١ ٨٠ بعد الميلاد.. فهذا التاريخ هو الذي سجلته أجهزة آلتي..!

وأثناء سيري إلى تلك الربوة، أخذت أرقب كل دليل يمكن أن يفسر الحالة السيئة التي تكتنف فخامة كل شيء حولي، فما أكثر الأطلال والخرائب! ففي منتصف التل رأيت مثلًا كومة كبيرة من الجرانيت، ومتاهة مترامية من الجدران المتداعية تنمو بينها نباتات غريبة الشكل رائعة الجمال،

أوراقها مزركشة بنقوش بنية اللون. وكان واضحًا أن هذه الخرائب هي البقية الباقية من بناء ضخم، لم أستطع أن أتبين الغرض الأصلي من إنشائه، وبين هذه الإطلال بالذات كان مكتوبًا لي أن أمر فيما بعد بتجربة عجيبة للغاية، قادتني إلى اكتشاف أعجب.. ولكني سأترك هذا الحديث إلى الوقت المناسب، واستأنف سرد القصة بترتيبها الزمني..

"ولما وقفت فوق قمة الربوة أجيل الطرف في الأفق المترامية تبينت فجأة أنه أثر هناك لبيوت صغيرة فكان البيت المفرد– وربما أيضًا العمارة السكنية قد انقرضت كما انقرضت الحيوانات المألوفة..!

"وخطرت في على الأثر فكرة أخرى، فنظرت إلى حفنة الأشخاص الذين كانوا يتتبعون خطواتي عندئذ.. فتبينت أيضًا أنهم نسخ متشابهة من حيث الأقمشة المصنوعة منها الثياب، والوجوه الخالية من الشعر وطراوة الأطراف ورخاوتها...

"أجل كنت قد لاحظت ذلك من قبل، ولكن الملاحظة لم تكن واضحة وشاملة. فليس هناك ذلك التفاوت في أصناف الثياب، ولا سيما بين الجنسين كما هو معهود لدينا، فاستنتجت أن هناك تشابهًا كبيرًا بين الجنسين في كل شيء في عالم المستقبل البعيد. ولقد أوشكت الفروق الجنسية أن تتلاشي، ولم يعد الرجل متميزًا بالقوة والمرأة بالرخاوة والنعومة. لم يعده الرجل متميزًا بالكدح والعمل.. فلا عمل هناك تقريبًا، وهكذا الحق الرجل بالنساء في نعومة الوجه والزي والرقة..

"وبهذه المناسبة ألاحظ أن في جيلنا الراهن بدايات الوحي بهذا الاتجاه.. بدايات لا يستهان بها في اختلاط الملابس والألوان والصفات والمظاهر...

"هذه على كل حال هي الخواطر التي مرت برأسي في البداية، قبل أن أتحقق من مدى أصابتها كبد الحقيقة.. وبينما أنا أفكر في هذه الأمور، استرعي انتباهي بناء جميل صغير أشبه ببئر مقامة تحت قبة.. وعجبت في نفسي لأن الآبار ظلت محتفظة بوجودها، ولم تندثر أو تنقرض مثل معظم معالم دنيانا الحاضرة..

"ولم يكن هناك قرب قمة الربوة أبنية كبيرة ولأن خطواتي كانت واسعة جدًا بالنسبة لأولئك الناس فسرعان ما ألقيت نفسي وحيدًا حين أسرعت في السير، وكانت هذه أول مرة أخلو فيها إلى نفسي.. وأسعدني هذا الشعور بالحرية والمغامرة فاندفعت نحو الربوة، وهناك وجدت مقعدًا من معدن أصفر لم أستطع التعرف عليه، وفي مواضع منه صدأ قرمزي، ويكاد يكسوه نبات ناعم مثل الطحلب ثابت حوله.. وعلى ذلك المقعد جلست، وأخذت انظر إلى عالمنا القديم في ضوء الأشعة الأخيرة للشمس الغاربة. وكان المنظر من ألطف وأجمل ما رأيته في حياتي، والأفق الغربي يختال في موكبه باذخ من القرمز والأرجوان والذهب. ومن تحت أقدامي يترامى وادي التايمز.. وهنا وهناك كنت أرى أطلالًا مندثرة وصروحًا شامخة

بين الحدائق المترامية ولمحت على البعد خطًا عموديًا لعله ينبئ عن قبة أو مسلة...

"ولم تبصر عيني أسوارًا، ولا أي دليل على ملكية خاصة ولا على زراعة مقصودة.. وكان الأرض كلها قد انقلبت حديقة أو جنة، ولعل منظر غروب الشمس قد أوحى إلى ذهني بالمخاطر الجديد الذي بدأ يستولي على تفكيري وهو أنني حللت الأرض في الزمن الذي جنح فيه الجنس البشري إلى الغروب. وأيقنت عندئذ أن القوة والصلابة لا تلدهما إلا الحاجة والمقاومة، وأن الأمان من الحاجة والطمأنينة ويسر المعيشة لابد أن تفضي إلى الضعف والانحلال..

"وأدركت عندئذ أن اتجاه البشرية إلى تحسين ظروف الحياة، وأن اجتهاد المدنية في زيادة الطمأنينة الاقتصادية والاجتماعية والبدنية والصحية قد بلغ على مر الزمن غايته. واستتب النص طويلًا لجهود البشرية المتحدة التي سيطرت على الطبيعة سيطرة تامة.. وأن الأمور التي نعتبرها اليوم أضغاث أحلام وأمنيات عذبة، بيد أنها خيالية، قد تحققت جميعها وزيد عليها أضعافًا مضاعفة.. فكانت نتيجة هذه الدنية القصوى المستقرة هي ذلك الحصاد المؤسف الذي يتراءى لعيني صورة خرائب أبنية وخرائب آدميين!.. الأطلال في كل مكان تتحدث عن انحلال سلالة لم يكن لطموحها حد، فدفعت ثمن النجاح تحللًا يشفي بها على الغناء!

"لكن بيننا وبين هذا الشوط مدى بعيدًا جدًا.. فزراعتنا اليوم ووسائلنا الصحية لم تزل بدائية جدًا، وعلمنا العصري لم يناوش إلا أقل القليل من كنوز المعرفة ومن مصادر المرض والفاقة. ولم يزل أمامنا شوط هائل، قبل أن تصل إلى ما يشبه ذروة المدنية، ولكن ذلك الزمن بلغ من سيطرته على سلالات النبات أنه يستحدثها لا بالتدريج ولكن في مثل طرفة المعين..! وسيكون أبناؤنا في المستقبل متكافئين في فرص الذكاء والصحة والرفاهية والرخاء والراحة، ولن يكون هنالك تفاوت بين أبناء البشر في الحقوق أو الامتيازات أو الواجبات، وما أكثر الامتيازات يومئذ وما أشال الواجبات!

"حسبكم أن تعلموا أن الهواء سيكون بفضل العلم خاليًا من الهوام والذباب والغبار والجراثيم، وأن التربة ستكون خالية من العوسج والأشواك والأعشاب الضارة.. أن الأمراض التي تعرفها لم يعد لها وجود في عالم المستقبل!.. لم يعد هناك في القاموس شيء اسمه العدوى أو الوباء. لقد قضى الطب الوقائي على الطب العلاجي، فانقرض كما انقرضت الحيوانات المندثرة!..

"بل أكثر من هذا، قضى العلم على ظاهرات التعفن الخلو الهواء من الجراثيم!.. أنهم يلقون بقايا الطعام وقشور النباتات حيثما اتفق فلا تتعفن ولا تتحلل.. كل شيء هنالك نظيف فلا وجود لما نسميه نحن القمامة أو النفاية!

"ومثلما قضى العلم على أسباب الشقاء الصحي، قضى الوعي الاجتماعي على أسباب الشقاء السياسية والاجتماعية.. فأبناء الجنس البشري على السواء يرفلون في أجود أنواع الثياب، بل ليس هناك من الثياب إلا نوع واحد هو الأجود.. فلماذا ينتج البشر ما هو أقل جودة أو أردأ وهم يعرفون كيف ينتجون الأجود والأفضل؟!...

"ثم لمن ينتجون الأردأ؟ ليس هناك تفاوت في القدرة التراثية، وليس هناك مجال للإثراء الذي يخلق تفاوت في الاقتناء...

"ولم ألاحظ على أحد هناك أنه يعمل.. ليس هناك إجراء ولا عمال، وليس هناك أي نوع من أنواع الصراع.. سواء كان صراعًا اجتماعي أو صراعًا اقتصاديًا.. والمتجر والإعلان وحركة المرور والنقل والتسابق على التصدير وعلى الأسواق، وكل تلك العمليات التجارية التي تنهك أعصاب العالم اليوم، وتقوم عليها المناورات الدولية والحروب والمخابرات الاستعمارية، ليس لها مكان في عالم المستقبل، انتهى زمنها بانتهائنا.

مصير قاتم

وكان من الطبيعي على ضوء تلك الخواطر والمشاهدات في تلك الأمسية الجميلة، أن أفكر في الفردوس الاجتماعي الذي تعتبره اليوم ضربًا من المحال أو شطحة من شطحات الخيال.. ولكن كيف يكون ذلك مستحيلًا وقد استطاع تقدم العلم والمدنية أن يتغلب على الحالة الجوية، فأصبح طقس إنجلترا ربيعًا دافئًا على الدوام طول النهار... وإذا طرأت عاصفة قبيل الفجر وتساقط الجليد كما شهدت ذلك بعيني ساعة الهبوط عند ساحة أبي الهول فالضرر مؤقت والأثر لا يلبث أن يزول!

"ومشكلة المشاكل التي يواجهها الحصفاء في أيامنا هذه- وهي الزيادة المطردة في النسل- استطاع العلم بكل وسيلة أن يجد لها حلًا حاسمًا، فالناس في هذا العالم السعيد لا يتهالكون على إنجاب الأطفال.. وعددهم دائمًا في حدود المعقول.

"ولكن المسالة الكبرى التي شغلت ذهني عندئذ هي العلة الخفية وراء هذا التغيير في أحوال البشر وأشكالهم.. فتغير الظروف يستتبع دائمًا من الناس التكييف والتأقلم ليواجهوا الظروف الجديدة ويعيشوا في ظلها.. فما هو ذلك التغير في الظروف الذي تسبب في تقيمي درجة الذكاء البشري وظهور قدرات الآدميين وبأسهم؟

إنها المصاعب والعقبات والقيود التي تكبل الحرية مع النزوع إلى الحرية، فهذه هي الظروف التي لا تسمح بالبقاء ألا لمن يعمل ويقاوم ويناضل وثبت في النضال ويحسن المراوغة عند الاقتضاء، وهكذا بقي في هذا الصراع الضخم القوى والذكي، أما الضعيف بدنًا وعقلًا فلا مكان له ولابد أن يفنى...

"وكما يبرز الكفاح كوامن القوة والذكاء، ينضج أيضًا صفة الصبر والسيطرة على النفس وضبط الأعصاب والحزم. وفي معمعان الصراع الدائر حول غريزة الجنس تبرز الحرص على كيان الأسرة وعوامل الخبرة والمسئولية والحنان على الذرية والعناية والتضحية وإنكار الذات..

"هذه هي المحن التي صهرت معدننا.. وأنضجت مواهبنا الجسدية والعقلية والخلقية. وبالقضاء على تلك المحن في ذلك المستقبل البعيد ضاعت نتيجة طموحنا المفرط إلى الرفاهية والدعة كنوز هي أثمن من كل رفاهية.. إنها كنوز أنفسنا وذواتنا.. كنوز القوة والذكاء والخلق!...

"وبينما أنا واقف هناك أتأمل ما آلت إليه البشرية من انحلال بسبب أمعائها في القوة، ومن هزيمة أمام الطبيعة بسبب أمعائها في السيطرة على الطبيعة، إذا بالقمر بدرًا في تمامه يتراءى في الأفق الشمالي الشرقي في هالة من الضياء الفضي..

"وأخذت حركات الناس عند سفح الربوة تقل إلى أن خفتت تمامًا.. ومرقت بجانبي بومه، وسرت في أوصالي قشعريرة من برودة الليل، فقررت أن أهبط التل لأدبر موضعًا لمبيتي..

وبحثت عن المبنى الذي أعرفه بعيني كي أحدد هدفي قبل أن أهبط التل. وتوقفت نظرتي أثناء هذا البحث لحظة عند تمثال أبي الهول المجمع الأبيض اللون فوق قاعدته المصنوعة من البرونز. وكان ضوء القمر الصاعد قد ازداد وضوحًا، فظهرت معالم التمثال وما يخيل به تمام الظهور.. واستطعت أن أرى الشجرة الفضية المجاورة له: والغابة الصغيرة من الشجيرات وقد بدت قاتمة في الضوء الشاحب وما هو أيضًا ذاك المسطح الصغير المفروش بالعشب الأخضر..

"وألقيت نظرة أخرى على ذلك المرج.. وانتابني شك قوي وقلت لنفسي بحرارة:

- كلا!.. ليس هذا هو المرج الذي أعرفه!

"ولكنه كان هو لأن وجه أبي الهول كان إلى ناحيته.. فهل يمكنكم أن تتصوروا أن هذا اليقين في نفسي؟.. كلا، لا يمكنكم أن تتصوروا هذا الأثر "أن آلة الزمن لم تكن في موضعها حيث تركتها هنا!..

"وفجأة شعرت كأن ضربة سوط هبطت على وجه.. أن معنى هذا أن عمري كله عرضة للضياع.. وأنني قد أبقى في هذا العالم الجديد الغريب وحيدًا لاحول لي ولا قوة.. وبعد لحظة واحدة، ترجمت أعصابي هذا

الإحساس إلى ذعر مفرط. وأخذت أجري في خطوات واسعة لأهبط التل، وسقطت على أم رأسي فجرح وجهي ولكني لم أضيع وقتًا في تجفيف الدم.. بل وثبت قائمًا واستأنفت الجري والقطرات الدافئة تنحاز وتنساب على خدي وذقني...

"وظللت طول الوقت اقول لنفسي وأنا أجرى:

– إنهم لم يفعلوا بها شيئًا.. وقد حركوها قليلًا فقط.. دفعوها تحت تلك الشجيرات حتى لا تعترض الطريق..

"وجعلت ألعن نفسي بصوت مسموع، وأنا أجري، لما أقدمت عليه من طيش حين تركت آلتى بغير احتياط. ورحت أنادي بصوت مرتفع فلا يجيب لى أحد، ويبدو أنه لم يكن هناك إنسان واحد يقظان في ذلك العالم المترامى المستلقى تحت ضوء القمر..

"وعندما وصلت إلى المرج تحققت أسوأ مخاوفي فلم يكن هناك أثر للآلة، وشعرت بالأعياء والبرد حينما واجهت المكان الخالي وسط الشجيرات القائمة– وجعلت أجري في أرجاء المكان وأنا في شدة الغيظ، كأنما الآلة يمكن أن تكون مختفية في ركن من الأركان.. وبعد قليل توقفت على حين غرة، وجعلت أجذب شعرى من شدة القهر. ومن فوقي كان أبو الهول الابيض المجنح يطل على من فوق قاعدته البرونزية، وخيل إلي في ضوء القمر أنه يبتسم ساخرًا من فجيعتي..!

"وكان من الممكن أن أعلل نفسي مفترضًا أن أولئك القوم قد وضعوا الآلة في مكان أمين ليحفظوها لي.. لولا أنني كنت على يقين من عجزهم عن ذلك جسديًا وذهنيًا، فخامرني الإحساس بأن هناك قوة خفية أجهلها تدخلت لإبعاد اختراعى عن يدي..!

"ولابد أني كنت في حالة جنونية لأني أتذكر جريي بعنف بين الأشجار وحول أبي الهول، وأنني رأيت أثناء جريي حيوانًا أبيض اللون، ظننته في الضوء الخافت غزالًا صغيرًا.. وأذكر أيضًا أنني في ساعة متأخرة من تلك الليلة، جعلت أضرب الاشجار بقبضة يدي إلى أن دميت مفاصل أصابعي، ثم أخذت أبكي وأهذي.. واندلعت نحو البناء الكبير، فوجدت القاعدة الكبرى مظلمة ساكنة مهجورة. وانزلقت على الأرض غير المستوية فكان وقوعي على إحدى الموائد الصخرية، وكدت أكسر عظام حوضي، وأوقدت عود ثقاب واخترقت الستائر المحملة بالتراب، فوجدت قاعة أخرى كبيرة ملأنة بالوسائد والحشايا.. وعلى بعد أمتار منها رأيت نحو عشرين من أولئك القوم الصغار نائمين.

"ولا شك أنهم عجبوا لظهوري بينهم على هذه الصورة عجبًا شديدًا، لأني دخلت عليهم على حين غرة هاتكًا حجب الظلام وسكينة الليل بأصوات غير مفهومة لهم وبضوء عود ثقاب.. فهم فيما يظهر قد نسوا كل شيء عن اختراع اسمه أعواد الثقاب..

"وجعلت أصيح بهم في غضب كغضب الطفل الهائج:

– اين آلتي؟ أين آلة الزمن؟

وكنت أضع يدي عليهم وأجذبهم لأنهضهم من رقادهم فكان ذلك بلا شك شيئًا عجيبًا في نظرهم.. فأخذ نفر منهم يضحكون، ولكن الغالبية استولى عليها الفزع!

"وفجأة أطفأت عود الثقاب واندفعت خارجًا، فاصطدمت في طريقي بواحد منهم وأوقعته على الأرض.. ثم اخترقت قاعة الطعام الكبرى مرة أخرى إلى أن وجدت نفسي في الخلاء تحت ضوء القمر..

"وسمعت صيحات تدل على الفزع، ووقع أقدامهم الصغيرة، وهم يجرون ويتعثرون في هذا الاتجاه أو ذاك ولست أتذكر كل ما فعلته والقمر يتسلق قبة السماء، ويخيل إلي أن جسامة خسارتي قد أطارت صوابى.. لأني شعرت بالانقطاع اليائس من نوعي كله، حتى صرت حيوانًا غريبًا في عالم مجهول...

"واخيرًا استلقيت على الأرض قرب تمثال أبي الهول المجنح، وانفجرت باكيًا في حزن وانكسار بالغ، مغيظًا الآن حماقتي سولت لي ترك الآلة الثمينة تغيب عني، وفيها سر قوتي كلها حتى لم يبق لي إلا الشقاء والعجز..

وعندئذ كان قد نال مني الاعياء والأسى فنمت.. ولم استيقظ إلا في وضح النهار، فوجدت عصفورين يتواثبان من حولي على العشب على قيد ذراع مني..

"وجلست في طراوة الصبح، أحاول أن أسترجع في ذهني كيف جئت إلى هنا، ولماذا أحس في أعماقي بالوحشة والانقطاع واليأس. ثم اتضحت الأشياء أمام بصورتي، وأتاح لي ضوء النهار شيئًا من الطمأنينة والاتزان فواجهت ظروفي الجديدة بتعقل. واتضحت لي حماقة ثورة غضبي الجنونية بالأمس، ورحت أناقش نفسي الحساب وأحاورها..

"وبدأت بافتراض أسوأ النتائج، قائلًا لنفسي:

– فلنفرض أن الآلة ضاعت تمام الضياع، أو تحطمت إن الواجب يقضي في هذه الحالة أن أكون هادئًا صبورًا أو أن أتعلم طرائق هؤلاء الناس في الحياة، وأحاول معرفة المصادر التي أحصل منها هنا على مايلزمني من المواد والأدوات عسى أن أتمكن في النهاية من صنع آلة أخرى للزمن، إن هذا هو بصيص أملي الوحيد.. وهو بصيص ضئيل فعلًا، لكنه أفضل كثيرًا من اليأس التام، ثم إن هذا العالم الجديد جميل في الواقع وطريف وملىء بنواحي الجدة التي تثير الاستطلاع..

"وهتف بي هاتف في نفسي بأن الآلة ربما كانت قد أخفيت في مكان بعيد.. ومع هذا يجب ان أتذرع بالهدوء والصبر كي أعثر على مخيلها واستردها، إما بالقوة وأما بالحيلة.

قاعدة التمثال

هذا القرار هدأت نفسي ونهضت قائمًا على قدمي.. وتلفت حولي وأنا أتساءل أين عساي أستطيع أن أستحم، لأن إرهاقي ونومي في العراء وتصلب أعضائي وغبار السفر جعل حالتي لا تطاق.. وأغرتني نضارة هذا الصبح أن أنشد لنفسي النظافة والنضارة..

"وبينما أنا أبحث عن موضع للاستحمام، جعلت في الوقت نفسه أفحص الأرض المحيطة بالمرعى الصغير فحصًا دقيقًا. ورحت أحاول توجيه الأسئلة بالاشارة إلى من أصادفهم في طريقي من أولئك القوم الصغار، فلم يستطع أحد منهم أن يفقه مرادي.. وبعضهم ذهل وسكت، أما البعض الآخر فظن أنني أهرج أو أداعب وجعلوا يضحكون مني. فوجدت عناء شديدًا في منع يدي من الانقضاض على وجوههم الضاحكة الجميلة..

"وبعد قليل وجدت بين الأعشاب آثارًا تبشر بالخير.. وكانت هذه الآثار عبارة عن أخاديد وخطوط في الأرض في منتصف المسافة بين قاعدة أبي الهول والموضع الذي هبطت عليه آلة الزمن عند وصولي. وفضلًا عن هذه الخطوط، وكانت هنالك أثار جر شيء ثقيل.. وبجوارها آثار اقدام صغيرة جدًا، ووجه هذا كله نظري إلى قاعدة التمثال، وكانت هذه القاعدة كما قلت آنفًا مصنوعة من البرونز..

"واتضح لي أن القاعدة المذكورة لم تكن كتلة واحدة صماء، فهناك نقوش كثيرة وإطارات متعددة على جانبيها.. فاتجهت إلى تلك الاطارات وجعلت أدق عليها بيدي، فعرفت أن القاعدة مجوفة، وفحصت تلك الإطارات بعناية فوجدتها غير متصلة بعضها ببعض.. ولم أكتشف مواضع للمقابض أو المفاتيح، إلا أني قدرت أن هذه الإطارات عبارة عن أبواب تفتح من الداخل..

"ووضح أمام ذهني تمام الوضوح، بغير عناء طويل في الإستنتاج، أن آلة الزمن مستقرة في موضع ما داخل القاعة.. وإن كنت لا أدري كيف أدخلوها هناك؟

"وفيما أنا في موقفي ذاك، وقد استبدت بي الحيرة، رأيت شخصين من أولئك الناس الصغار في ثياب برتقالية اللون قابعين تحت أشجار التفاح المزهرة.. فالتفت نحوهما باسمًا، وأشرت إليهما بالاقتراب مني، فاقتربا. وعندئذاشرت إلى القاعدة البرونزية، وحاولت أن أفهمهما بالاشارة فحوى رقبتي في فتحها..

"ولكن بمجرد الإقدام على أول إشارة في هذا المعنى، وجدت لديهما رد فعل غاية في الغرابة.. ولا أدري كيف أصور ذلك لكم اليوم؟ ولذا سأقرب الموقف من أذهانكم بتشبيه تمثيلي؛ وتصوروا أن أحًدا منكم بدرت منه إشارة نائية أو بذيئة نحو سيدة مهذبة خجول.. إن رد الفعل لدى هذه السيدة شبيه تمامًا بما ارتسم على وجهي هذين الشخصين في تلك

اللحظة.. كأن إشارتي تحمل كل معاني الفحش الخادش للحياء.. وانطلقا مولين فرارًا كأنهما تلقيا أفظع إهانة يمكن أن تخطر بالبال، وتركاني في حالة حرة لا مزيد عليها!

"وحاولت المحاولة نفسها مع شخص لطيف المنظر يرتدي ثوبًا أبيض، فكانت النتيجة هي بعينها.. وكانت نظراته لي مبعثًا الإحساس بالخجل من نفسي، ولكني كما تعلمون كنت حريصًا على استرداد آلتي. فأعدت عليه الكرة، فأولانى ظهره موليا عني كما فعل صاحباه من قبل. فأفلت زمامي من يدي، وسيطر علي غضبي. وفي ثلاث خطوات، كنت قد أدركته وأخذت بتلابيبه وجعلت أجره نحو تمثال أبي الهول جرًا..

"وعندئذ طالعت في وجهه من الارتياع والنفور ما جعلني أفلته، فراح يعدو مبتعدًا لايلوي على شيء.. وذهبت إلى القاعدة البرونزية وجعلت أدق إطاراتها بقبضتي، تخيل إلى أني أسمع شيئًا يتحرك في الداخل.. خيل إلي بصراحة أني أسمع ضحكة ساخرة، ولكن لابد أني كنت مخطئًا..

"وانتقيت قطعة حجر كبيرة استبدلت بها بعد قليل حصاة ضخمة.. ورحت أدق بها القاعدة حتى أخذ الصدأ يتناثر، ولابد أن أولئك الناس الرقاق قد سمعوا الدق على مدى ميل أو أكثر.. لقد رأيت عددًا منهم يقفون فوق الربى البعيدة ناظرين نحوي في استطلاعٍ ودهشة..

"وأخيرًا أدركني التعب وتصبب عرقًا، فجلست أرقب المكان ولا أدري ماذا أصنع، ولكني لم أستطع صبرًا على هذا السكوت، فطبيعتي

الغريبة لاتسمح لي بهذا الركود.. وأنا لا أسأم من متابعة معضلة بقصد إيجاد حل لها سنوات متوالية، أما الاكتفاء بالسكوت والركود أربعة وعشرين ساعة فشيء لا طاقة لي به..

"ونهضت بعد فترة من الوقت، ورحت أتجول على غير هدى بين الاشجار..

"وفجأة تبدت أمام ذهني المفارقة الضخمة، حين تذكرت تلك السنوات الطويلة من عمري التي أنفقتها في الدروس والعمل الكادح لأصل إلى عصر المستقبل.. وها أنذا أطأ بقدمي عمر المستقبل حتى جن جنوني لهفة مني على مفارقته!!

"إنني في الحقيقة فقد صنعت بنفسي أعقد وأسوأ فخ صنعه إنسان.. ومع أنني كنت الضحية في هذا المأزق إلا أن المفارقة الضخمة كانت أقوى من حيرتي وأحزاني فانفجرت أقهقه ضاحكًا..

"وعندما دخلت القصر الكبير خيل إلي أن الناس يتجنبونني.. ولعل هذا كان وهمًا صوره لي خيالى، أو لعله حقيقة سببها إقدامي على دق جوانب قاعدة تمثالهم الكبير، ولكن احساسي الداخلي أكد لي أنهم يتجنبونى فعلًا، ومع هذا حرصت أشد الحرص على ألا أظهر لهم أدنى اهتمام، وألا أحاول مخاطبتهم أو الاتصال بهم.

القسم الثالث

صورة عالم المستقبل

وحشية الغربة

"وانقضى يومان فعادت الأمور إلى سالف عهدها، وتعلمت مااستطعت من لغتهم.. وزدت محصولى من الاكتشافات بالتجول هنا وهناك..

"وما لم أكن قد أسأت الفهم، فالذي أدركته أن لغتهم بسيطة كل البساطة، وتتكون من أسماء الموجودات المادية ومن الأفعال. وليست هنالك ألفاظ تدل على أشياء مجردة أو استعارات، فعباراتهم تتكون غالبًا من كلمتين اثنتين..

"وحاولت أن أعبر لهم بهذه الكنية عن فكرة آلة الزمان، وعن لغز الأبواب البرونزية التي تحت تمثال أبي الهول فلم أفلح، ولذا قررت إرجاء هذه المحاولات إلى أن تزداد معلوماتي وأصل إلى حل هذه الألغاز بوسائل الخاصة.. وإن كنت حريصًا على ألا أبتعد عن موضع وصولي أكثر من بضعة أميال في أي اتجاه من الإتجاهات..

"ومن هذه الجولات، استطعت أن أكون فكرة مضمونها أن سائر أنحاء العالم تتمتع بما يتمتع به وادي نهر التيمز في هذا الموضع من رخاء وبذخ وخصوبة، فكلما ارتقيت تلًا من التلال وقفت عيني على ما يشبه الأبنية المحيطة بي في فخامتها وضخامتها.. على تنوع لا حد له في مواد البناء وطرازه، وتحيط بتلك القصور العظيمة بساتين وغابات دائمة الخضرة

أشجارها مزهرة أو مثمرة. وهنا وهناك بحيرات وأنهار تلمع في ضوء الشمس كأنها الفضة الذائبة، والتلال والربى والجبال تغطيها النباتات والمروج إلى مدى النظر..

"ولفتت نظري ظاهرة خاصة هي كثرة الآبار الدائرية وبعضها بعيدة الغور جدًا.. وإحدى تلك الآبار على الطريق الصاعدة إلى التل. وهي تلك الطريق التي سرت فيها في أول أمسية لي بعد مأدبة الطعام في القصر الكبير..

"وقد وجدت تلك البئر– شأنها في ذلك شأن الآبار الأخرى– مسورة بالبرونز وتعلوها قبة صغيرة تحميها من الامطار. وجلست بجوار البئر ونظرت في أعماقها المظلمة، فلم أستطع أن ألمح أي أثر للماء. واستعنت بإشعال عود ثقاب فلم أجد لنوره انعكاسًا.. والماء يعكس أشعة الضوء كما هو معلوم. ولكن في جميع تلك الآبار سمعت صوتًا معينًا هو أشبه شيء في رتابته بصوت آلة ضخمة تدور بانتظام. واكتشفت مما يحدث لشمعات الثقاب أن هنالك تيارًا ثابتًا من الهواء يندفع إلى أعماق تلك الآبار. ورميت قصاصة من الورق في فتحة إحداها، فإذا بها لا تهبط إلى الداخل ببطء كما هو مفروض، بل رأيتها في لمح البصر تمتص وتغوص في جوف البئر متوارية عن نظرى..

"وبعد تكرار التجربة، استطعت أن أربط بين هذه الآبار وبين أبراج عالية شاهدتها هنا وهناك فوق جوانب التلال.. ففوق هذه الأبراج كنت

أرى في أحيان كثيرة وميضًا خاطفًا في الجو كذلك الوميض الذي يراه المرء في يوم شديد الحرارة فوق رمال الشاطيء..

"وبشيء من إعمال الذهن، استطعت أن أكون افتراضًا قويًا عن وجود نظام ضخم للتهوية تحت الأرض.. وإن كنت لم أستطع أن أتصور الهدف الحقيقي لذلك النظام وخيل إلى في البداية أن له علاقة بالنظام الصحي الوقائي المحكم لدى هؤلاء الناس. وربما كانت هذه التهوية مرتبطة بما يشبه نظام المجارى عندنا، وهو افتراض كما ترون قريب إلى الذهن وله وجاهته.. ولكنه كان بعيدًا كل البعد عن الصواب..

"وهنا يجب أن أذكر شيئًا خاصًا، وهو أني لم أصادف إلا أقل القليل– في عالم المستقبل ذاك– من استعمال البالوعات، ودورات المياه، وما إلى ذلك من الأدوات الصحية التي عهدناها في عالمنا. وكان المفروض أيضًا أن عالم المستقبل ستكون فيه تنظيمات دقيقة جدًا لتصرفات الناس، بحكم اشتراكهم معًا في أبنية واحدة ومنافع واحدة.. ولكني لم ألاحظ شيئًا من ذلك كله. وإن كنت قد أحسست بوجود أجهزة وتنظيمات غريبة جدًا غائبة عن نظري وفطنتي، ولكنها ذات أثر فعال في معيشة الناس وتوفير الراحة لهم.. وكلها بلا شك تنظيمات أوتوماتيكية، ولكني لا أستطيع أن أحدثكم عن كنهها، لأن حالي هناك كانت في الواقع أشبه بحال رجل بدائي زنجي جيء به من الغابة الفطرية إلى قلب لندن بضعة أيام ثم أعيد إلى عشيرته الأولى فورًا..!

"ولكم أن تتصوروا القصة التي سيرويها هذا البدائي لأبناء قبيلته عن مدينة لندن وأحوال أهلها وأساليب معيشتهم.. إنه طبعًا سيكون قد تلقى منا في لندن تفسيرات كثيرة وبيانات عما يراه من وسائل النقل وشبكات المواصلات والمصانع والمصاعد والصحف.. ولكنها طبعًا ستكون بيانات غير مغنية بسبب الفجوة الكبيرة بين مستواه الحضاري والعلمي ومستوانا نحن في لندن. وبطبيعة الحال سوف لا يفهم مواطنوه من كلامه شيئًا كثيرًا، لأنه إذا كان من رأى بعينية لم يفهم، فما بالكم بمن لم يروا بأعينهم..

"والذي قدرته أن المسافة أو الهوة الهائلة بين ذلك البدائي والحياة اللندنية أضأل بكثير من الهاوية العقلية والحضارة التي تفصل بيننا وبين عمر المستقبل الذي عشت فيه تلك الفترة من الوقت..

"فبالنسبة لدفن الموتى مثلًا، لم تقع عيني على أي علامة تدلني على وجود مقابر من أي نوع لدى هؤلاء الناس. ولكن خطر لي أنه ربما كانت لديهم مقابر أو محارق في موضع ما خارج دائرة اكتشافي.. وكانت هذه المسألة من أهم مايشغل ذهني ويحيره. وفي الوقت نفسه لاحظت شيئًا آخر ضاعف من حيرتي، وهو أن أولئك الناس لا يوجد بينهم عجوز ولا مريض.

"ويجب أن أعترف لكم أن مرور الأيام قلل كثيرًا من قيمة آرائي أو نظرياتي عن مدينة آلية مفرطة في آليتها وبشرية منحلة تتجه يسبب ترفها المفرط إلى الانقراض.. ولكن تزعزع ثقتي بصواب هذه النظرية جعلني أفكر

في تفسير آخر لما أراه حولي، ولم أستطع أن أصل إلى ذلك التفسير المقنع.. واكتفيت بوضع الفروض..

"واتضح لي أن القصور العديدة الضخمة التي زرتها كانت أماكن للإقامة ليس إلا، فيها قاعات طعام ضخمة وعنابر نوم واسعة.. ولم أكتشف فيها أي أثر للآلات التي تقوم على توفير معدات الراحة. وهؤلاء الناس أراهم دائمًا في ثياب فاخرة جديدة، لابد أنها تحتاج إلى الغسل والكي باستمرار، وتحتاج إلى زيادة مطردة من الإنتاج الجديد.. وكذلك الشأن في نعالهم، فقد كانت على صغر حجمها تدل على صناعة دقيقة معقدة، ولابد أنها تصنع في مكان ما بكيفية ما..

"وأعجزني أن اكتشف أي نوع من الحوانيت أو المشاغل أو مؤسسات الاستيراد في جميع البقاع التي زرتها باحثًا منقبًا.. وأعجزني أن أجد للناس أي نوع من العمل أو الإبتكار أو الابتهاج، فهم ينفقون وقتهم كله في أنواع طريفة لطيفة من اللعب، أو في السباحة بين ضفتي النهر في ماء صاف صفاء البللور.. أو تبادلون ألوانًا من الغزل الرقيق الخفيف، أو ينامون في ظلال الأشجار أو في أبهاء النوم جماعات..

"لقد حيرتني حياتهم، وزادتني الأيام دهشة ومثيرة.. ولم أستطع أن أعرف ولو على وجه التقريب الأساس الذي تقوم عليه موارد حياتهم اللاهية السهلة..

"ومرة أخرى أسلمتني تلك الحيرة إلى التفكير في مصير جهازي المفقود..

"ساقني ذلك إلى التفكير في موضوع آلة الزمن، فلست أدري أي قوة تلك التي نقلتها من موضعها إلى جوف قاعدة تمثال أبي الهول.. ولأى غرض تم هذا النقل؟ لم أستطع أن أتصور إجابة مريحة عن سؤالي هذا ولا تفسيرًا معقولًا لتلك الآبار الخالية من الماء.

الوقوع في الحب

"كان يعوزني الدليل الذي أهتدي به في الوصول إلى تأويل مقنع.. وتمنيت أن أجد بين الأبنية كتابة ألمح فيها بقايا من اللغة الإنجليزية أستعين بمقارنة حروفها على فهم شيء من حقيقة ذلك العالم..

"ولكن اليوم الثالث من إقامتي في حوض التيمز سنة ٨٠٢٧٠١ م كان أشبه في نظري بصحيفة حافلة بكتابة حروفها مجهولة عندي تمام الجهل. وبين عبارة وأخرى تطالعني جملة كلمات إنجليزية فصيحة، فلا أفهم الرابطة بينها وبين سائر ذلك الكلام.. فإذا الصحيفة كلها في نظري معميات لا أفقه لها مغزى!

"وفي ذلك اليوم الثالث كسبت صديقًا، فبينما كنت أرقب مجموعة من أولئك القوم الصغار وهم يستحمون عند شاطيء ضحل من شطوط النهر، أصيب شخص بتقلص في العضلات وأخذ يغوص مستسلمًا للتيار.. وكان التيار سريعًا، ولكنه ليس من القوة بحيث يجرف سباحًا متوسط القدرة. ولاشك في أنكم ستتصورون ما في طباع أولئك القوم من النقص، إذا قلت لكم أن ما من أحد منهم حاول أن ينقل ذلك المسكين الذي شرع يغرق أمام أعينهم وهو يصرخ صراخًا ضعيفًا..

"وعلى الفور نزعت ثيابي، وقذفت بنفسي في الماء وأخرجت الغريق سالمًا إلى البر.. فإذا بها فتاة، أخذت أدلك أطرافها فأفاقت من الإغماء.. وارتدت إلى حالتها الطبيعية، فتركتها لأنني لم أتوقع من ذلك الجنس الراهن الخلق والطبع أن يعرف شيئًا اسمه الامتنان وتقدير المعروف، ولكني في تلك المرة اخطأت التقدير!

"وقع ذلك الحادث في الصباح.. وعندما عدت من جولة استكشافية بعيدة المدى بعد الظهر، قابلتني تلك الأنثى الصغيرة بصيحات الفرح والابتهاج وقدمت إلي عقدًا كبيرًا من الأزهار.. صنعته خصيصًا لي، فتأثرت لهذه المظاهر تأثرًا بالغًا. ولعل ذلك كان بسبب ما سيطر على نفسي من الوحشة والقرية، فبذلت أقصى جهدي لأعبر لها عن تقديري العظيم لهديتها. وانتحيت بها جانبًا وجلسنا فوق مقعد حجري وانهمكنا في حديث معظم عباراته نظرات وابتسامات. وكان لحركاتها وتوددها من الأثر في نفسي مثل ما لحركات الأطفال وتوددهم من الأثر في نفوسنا نحن.. وجعلنا نتبادل الزهر، وهي تقبل يدي وتمرغ فيها وجنتيها وشعرها، وحاولت أن أبادلها الحديث في الحدود الضيقة التي أعرفها من لغتهم.. فاكتشفت أن اسمها "وينا"، ولم أعرف ماذا يعني هذا الاسم عندهم، ولكنه يبدو لي ملائمًا لها كل الملائمة، وهكذا بدأت بيننا صداقة عجيبة دامت أسبوعًا، وانتهت على النحو الذي سأذكره لكم..

"وكانت "وينا" كالأطفال تمامًا في كل شيء، تتعلق بأذيالي وتصر على ملازمتي دائمًا وفي كل مكان.. فلما خرجت في رحلتي الاستكشافية التالية حز في نفسي أن أجهدها من شدة الجري ورائي إلى أن تركتها أخيرًا ملقاة على الأرض تنادي من خلفي باسمي في صوت باك. ولكن المشكلات الحيوية التي كنت أواجهها، كانت أهم في نظري كثيرًا من تلك المودة أو العلاقة الغزلية الغريبة.. ولم أعرف إلا بعد فوات الأوان مبلغ قيمتي عند هذه المسكينة والمكانة التي احتلتها في قلبي بظرفها ووقتها وشدة ولائها والحقيقة أن هذا التعلق من جانبها بشخصي وبكائها عند ابتعادي عنها، هو الذي جعلني أشعر عند العودة إلى منطقة أبي الهول حيث تركتها وكأني عائد إلى داري الحقيقية. وكنت أظن كل مكان في ذلك العالم– كأى مكان أخر. فيه الوحشة بالنسبة لي.. ولكن هأنذا أخيرًا قد وجدت وجهًا اتطلع إلى رؤياه، وانقب بعيشي باحثا عنه بين عشرات الوجوه.. بمجرد هبوطي إلى صفيح التل...

"ومن "وينا" عرفت أيضًا أن الخوف لم ينقرض من ذلك العالم، فلم أعهد عليها أدنى خوف في النهار.. وكانت ثقتها بي لاحد لها. ولما خطر لي في لحظة طيش أن أقلب وجهي متوعًدا هللت لتقطيبي وضحكت منه.. ولكنها كانت تخشى الظلام، وتخشى الظلال، وتخشى كل شيء أسود أو معتم.. فالظلام هو الشيء الوحيد المرهوب لديها، فكان ذلك غريبًا أشد الغرابة في نظري، وحملني ذلك على إمعان النظر وإعمال الفكر..

فاكتشفت عندئذ بين ما اكتشفته من الحقائق عن هؤلاء القوم الصغار أنهم يتجمعون في تلك القصور الكبيرة بعد حلول الظلام ويناموَن زرافات، فإذا دخلت عليهم وهم نيام بغير ضوء دب فيهم الذعر..

"ولم يحدث أن التقيت بأحد منهم خارج الدور في الليل، أو نائمًا بمفرده داخل الدار، ولكنني كنت من الغباء بحيث لم أفد من درس هذا الرعب، ولم تفلح توسلات "وينا" واحزانها في الحيلولة بيني وبين النوم بمعزل عن هذه القطعان المتجمعة في مراقدها..

"كان اضطرابها عظيمًا بسبب إصراري على ذلك الانفراد في النوم، بيد أن تعلقها العجيب بشخصي تغلب في النهاية على جزعها.. فقضت الليالي الخمس الأخيرة من تعارفنا نائمة بجواري و قد توسدت ذراعي..

وهنا يجب أن أذكر إنني في الليلة السابقة على يوم انقاذها من الغرق، تنبهه قرب الفجر على أثر حلم مزعج رأيت فيه نفسي غارقًا في لجة بحر، وحيوانات البحر تتحسس وجهي بزعانفها الناعمة، وخيل إلي وأنا لم أزل تحت سلطان النعاس أن حيوانًا رمادي اللون انفلت خارجًا من الحجرة.. وحاولت بعدها أن أعاود للنوم، ولكني شعرت بعدم ارتياح غامض في تلك الساعة التي يتداخل فيها الليل والنهار بحيث تبدو المرئيات واضحة الجرم ولكن لا يتضح لها لون.. فكأنها أشباح ثلم أطيافها بعالم الواقع، وهي ليست من دنيا الواقع، فنهض وغادرت الحجرة الصغيرة

الى البهو الكبير، واخترقت النيام إلى مدخل القصر وفي نيتي أن أقيد من هذا الأرق بامتاع ناظرى بروعة شروق الشمس..

"ورأيت القمر في لحظات الغروب الأخيرة، بحيث تلاقى الشعاع الأخير من نوره الباهت ببواكير نور الفجر الشاحب.. فبدت لي الأشجار والخمائل حالكة السواد والأرض قاتمة، والسماء ناصلة اللون لا بهجة فيها للعين. ولما رميت بطرفي إلى مرتقى التل خيل إلى أني أرى ثمة أشباحًا. وأينما دققت النظر بدت لي أجسام بيضاء، بل خيل إلي مرتين أني أرى مخلوقًا منفردًا أبيض اللون شبيهًا بالقرد يرقى التل في سرعة حثيثة. ولمحت عندالأطلال المبعثرة هناك شرذمة من تلك المخلوقات تحمل جسمًا قاتمًا وتجري به مسرعة، ثم لم أتبين ماذا كان من أمرهم بعد ذلك لأنهم تواروا عن عيني بين الأشجار. وكان ضياء الفجر لم يزل دون المستوى الكافي للرؤية الواضحة، وبرودة الطل تمري في أوصالى.. فكذبت نظري..

"وظللت طيلة ذلك الصباح مشغول الذهن بما تراءى لعيني إلى أن طرد انقاذي "لوينا" تلك الخواطر من رأسي..

"وذات صباح شديد الحرارة– هو صباح اليوم الرابع من أقامتي فيما أعتقد– رحت أنشد ملاذًا من الحرارة والوهج الشديد بين الاحتلال الهائلة، عن كثب من القصر الكبير الذي أنام فيه وآكل، وعندئذ حدث شيء عجيب.. فإذ أنا أتسور تلك الأنقاض الضخمة، اكتشفت دهليزا ضيقًا تراكمت الحجارة المنهارة فوقه فسدت نوافله من الخارج، وحجبت

عنه ضياء الشمس وحرارتها. وبدا لي الدهليز– وأنا مقبل من وهج الضحى– وكأنه ديجور دامس، فجعلت أتحسس طريقي وأخطو مترددًا. ثم وقفت فجأة كالمأخوذ، فقد رأيت عينين تلمعان في الضوء المنعكس عليهما من الخارج وهما ترقبان حركاتي من أعماق الظلام...

"وقاومت فزعي بعض الشيء وتقدمت خطوة إلى الأمام، وتكلمت بصوت أعترف لكم أنه كان أجش مضطربًا، ثم مددت يدي فلامست شيئًا ناعمًا. وحينئذ نحت العينان المحملقتان نظراتهما!

سلالة أخرى

"وبينما أنا على تلك الحال، انفلت جسم أبيض من جواري.. والتفت وقد بلغت الروح مني التراقي، فرأيت شكلًا قريبًا أشبه بقرد صغير رأسه مطرق بصورة غير عادية وهو يجري مخترقًا الرحبة الغارقة في أشعة الشمس، ثم ارتطم بكتلة من الجرانيت، فترنح.. ولكنه بعد لحظة كان قد توارى بين الظلال تحت كومة أخرى من الانقاض..

"ومن تلك النظرة الخاطفة المضطربة، لم أستطع أن أكون فكرة واضحة عن ذلك الحيوان سوى بياضه الشاحب واحمرار عينيه الواسعتين ووجود شعر كتاني اللون فوق رأسه وعلى ظهره.. فلم أستطع أن أتبين هل كان يجري على أربع، أم أن ذراعيه لفرط طولهما مع إطراق رأسه الشديد كادا يلمسان الأرض..

"وشجعني فرار الحيوان فتعقبته بعد لحظة إلى مكمنه. ولم أعثر عليه لأول وهلة، ولكني بعد أن تعودت العتمة، عثرت على فوهة بئر من تلك الآبار التي حدثتكم عنها، فخطر لي أن ضالتي ربما اختفت داخل تلك البئر.. فأشعلت عود ثقاب ونظرت، فرأيت الحيوان الصغير الأبيض يحملق في وجهي وهو منسحب إلى الأعماق المظلمة، فاقشعر بدني وكأني أنظر إلى نموذج جنس مزيج من العنكبوت والإنسان..

"وكان هذا الحيوان يتسلق جدار البئر بسرعة.. وعندئذ لاحظت لأول مرة درجًا وحاجزًا من المعدن على طول البئر. وأوشكت النار أن تحرق أصابعي فألقيت الثقاب من يدي فانطفأ، ولما اشعلت ثقابًا آخر كان الحيوان قد اختفى..

"ولست أدري كم مضى على من الوقت وأنا جالس أحدق في أغوار تلك البئر، فقد انقضت فترة غير قصيرة قبل أن أوفق في اقناع نفسي بأن ذلك المخلوق الذي رأيته منذ قليل كائن بشري. وشيئًا فشيئًا بدأت أضواء الحقيقة تتبلج أمام بصرى.. وأدركت أن الإنسان لم يظل بتوالي الأجيال نوعًا واحدًا، بل تمايزت فيه فصيلتان من الكائنات البشرية، وليس الأطفال الظرفاء الحسان الذين يمرحون من حولي في العالم العلوي هم السلالة الوحيدة لنوعنا.. بل هناك أيضًا ذلك الحيوان المبيض البغيض الذي يعيش في الظلام، فهو الفصيلة الأخرى التي تشترك في وراثة أجيالنا..

"وانتقل بي هذا إلى التفكير في النظريات والفروض التي خامرت ذهنى بصدد التهوية والسراديب وتنظيم العمل الآلي تحت سطح الأرض، وعجبت كيف يمكن أن تكون العلاقة بين ذلك العالم السفلي القبيح وبين العالم العلوى النقي المشرق الجميل؟.. ترى ما الذي يكمن في الظلام عند نهاية هذه الدرجات المعدنية؟

"جلست على حافة البئر، أحدث نفسي بأنه لا مدعاة للخوف على كل حال، وأنني يجب أن أهبط درج البئر المعتمة لأصل إلى الجواب الشافي عن جميع أسئلتي.. ولكني في الوقت نفسه كنت أشعر بخوف شديد من الهبوط الى ذلك المجهول!

"وبينما أنا حائر متردد، أقبل اثنان من الأقوام الحسان الصغار يجريان ويلهوان في وضح الشمس ويتطارحان الغرام بصورة عفوية لطيفة.. فكان الذكر يغري الأنثى بإلقاء الزهور عليها وهما يعودان إلى ظل بعض الأشجار القريبة، فلما أبصراني متكئًا بذراعي على حافة البئر وأنا أحدق في أعماقها ظهر عليهما الأسف والغم، ويبدو أن الاقتراب من تلك الفوهات يعتبر في نظر هؤلاء القوم فساد ذوق!

وزاد إحساسى بذلك، عندما أشرت إلى الفوهة وحاولت بما تعلمته من الألفاظ القليلة أن أسألهما بلغتهما عن مهمة تلك الآبار إلى أين تؤدي، فقد وضع لي استياؤهما وأشاحا عني بوجهيهما..

"وتراءى لي، بصورة غامضة جدًا، شكل تخطيطي لأسس الحياة الاقتصادية العالم المستقبل البعيد وهي المشكلة التي كانت تحير عقلي.. ومؤدى فكرتي الجديدة أن تلك الفصيلة الأخرى من البشر تعيش تحت الارض. وكانت عندي ثلاث قرائن محددة على ذلك الاعتقاد.. القرينة الأولى هي هذا البياض الشاحب الذي تتميز به الكائنات التي تعيش معظم وقتها في الظلام. فما أشبه ألوانهم بلون السمكة البيضاء التي تعيش

في كهوف كنتوكى مثلًا.. ثم هناك اتساع العينين وقدرتهما على أن تعكسا الضوء، وهي خاصة مشتركة لدى الحيوانات الليلية.. وخير مثال على ذلك البومة والقطة.. ثم هناك أخيرًا ذلك الاضطراب الواضح، والتخبط في ضوء الشمس، والفرار إلى الظلام، والأطراف الشديد بالرأس في الضوء مما يدل على شدة حساسية شبكية العين. ويعزز القول بأن ندرة خروج هذه المخلوقات إلى العالم العلوي على سطح الأرض ناجمة عن تعود الحياة باستمرار تحت الأرض عشرات الأجيال أو مئاتها..

"فالأرض إذن تحت قدمي، لابد أن تكون حافلة بالإنفاق والسراديب.. وهذه الاتفاق هي مقر النوع الجديد من البشر. والدليل على تشعبها وجود أبراج التهوية والآبار فوق جميع سفوح التلال وفي كل مكان إلا على طول مجرى النهر.. فمن الطبيعي إذن أن أستنتج تخصص ذلك العالم السفلي في القيام بجميع الأعمال الضرورية لتوفير الرفاهية للتنوع البشري الآخر الذي يعيش في ضوء النهار..

"وهو استنتاج ليس هناك ما ينقضه، ولذلك سلمت به أساسًا لمواصلة التفكير. وكانت الخطوة التالية هي التساؤل عن كيفية انقسام النوع البشري إلى فصيلتين متمايزتين بهذه الصورة الواضحة.. فلابد أن هنال عوامل كافية نتج عنها هذا الانقسام...

"وعلى ضوء ما نعهده في زمننا الحاضر، وظروفنا الاجتماعية الراهنة، من ازدياد شقة الاختلاف في جميع الظروف بين العامل وصاحب العمل..

استطعت أن اتصور مفتاح ذلك التطور الضخم الذي تم تدريجيًا في الزمن المتطاول، وخيل إلي أن هذا التأويل واضح وضوح الشمس في الضحي..

"وأعتقد أنكم ستنظرون في الغالب إلى هذا التأويل نظرة انكار.. وسترونه مفرطًا في التعسف بصورة يأباها العقل، ولكني أطلب إليكم أن تستعينوا بما في عقولكم من مرونة وما في خيالكم من خصوبة.. ولا سيما أن تحت أنظاركم في أيامنا هذه بوادر تدل على هذا الاتجاه إلى استغلال باطن الأرض على مدى واسع لتخفيف الزحام عن وجه الأرض ولاخفاء المرافق القبيحة الشكل. فهناك المواصلات السفلية في لندن وباريس (المترو) وجميع محطاتها تحت سطح الأرض، وبها مقاصف ومتاجر.. قم هناك أيضًا في جميع مدن العالم دورات مياه تحت الأرض. وهناك مطاعم ومراقص ومشاغل يزداد عددها كل يوم تحت سطح الأرض..

"وفي اعتقادي أن هذا الاتجاه الأرضي السفلي، أخذ بتسع ويستفحل بمرور الأجيال، إلى أن صارت المصانع كلها تحت سطح الأرض. وزادت الأوقات التي يقضيها العمال في الظلام إلى أن وصل الأمر في المدة المديدة إلى ما ذكرته لكم.. وإني أناشدكم أن تتجردوا من سلطان المادة المألوفة وتلقوا نظرة على العامل الانجليزي اليوم.. ألستم ترونه يقضي معظم الوقت في ظروف صناعية تباعا- بصورة عملية- بينه وبين الظروف الطبيعية التي تتمثل في وجه الأرض؟

"ثم أناشدكم أن تلقوا نظرة أخرى على الطبقة المترفة الثرية، وسترون أن سلالاتها تزداد مع الزمن ترنا في نشأتها وتربيتها.. وتزداد رخاوة وطراوة..!

"وكلنا نعلم أن الخصائص المكتسبة، إذا استمر الحال عليها أجيالًا متعاقبة كافية انقلبت فجأة إلى خصائص موروثة.. وهذا التفسير العلمي هو الذي يعلل انتهاء فوارقنا الاجتماعية مع الزمن إلى فوارق نوعية موروثة تتبلور في فصيلتين أو سلالتين من نوعنا البشري الواحد..

"وهكذا ستتصورون على ضوء هذه الاعتبارات والقرائن كيف وقر في ذهني أن وجه الأرض أصبح مقام المالكين.. وهم النسل البعيد لأصحاب العمل المترفين المتعطلين الذين هم في غنى عن كل عمل وكدح أو كفاح، وأن ما تحت سطح الأرض هو العالم الذي انحصر فيه المعوزون أو المحرومون، وهم سلالة عمال عصرنا الذين تدور حياتهم كلها على الكدح والاجتهاد البدني...

"وعلى هدى المعهود في أحوالنا الاجتماعية، تصورت مكان ما تحت الأرض ملتزمين بدفع أجر بأمثل من مساكنهم السيئة، ولابد أيضًا من أجر إضافي نظير أجهزة التهوية.. وبسبب هذا الأجر، يجب أن يعملوا ساعات إضافية.. ومن تمرد منهم خنق بمنع التهوية عنه..!

"ومع توالي الأجيال انقرض المتمردون، ولم تبق إلا سلالة من المنقادين المستضعفين. وتم للسعادة مكان العالم العلوي السلطان المستقر،

وتأقلمت كل من السلالتين مع ظروفها الجديدة، وأخلدت إليها مطمئنة. وخيل إلي أن رقة هؤلاء وجمالهم، وأن شحوب أولئك وبشاعتهم، مظاهر طبيعية لأحوالى كل من السلالتين...

"وهكذا بدأ لي انتصار الحضارة الإنسانية الذي طالما حلمت به وتمنيته، وقد شاه منظره ومسخ مخبره.. وتبينت أن نومنا البشري لم يحقق للأسف شيئًا مما تخيلته من ثمرات التربية العقلية الواعية والتعاون الاجتماعي الرشيد.. فإذا أمام عيني للأسف طبقة ارستقراطية بكل معنى تلك الكلمة متسلحة بسلطان علمي لا حد له، وأتاح لها ذلك السلطان أن تستغل التنظيم الصناعي الراهن أكمل استغلال، وأن تستخرج منه نتائجه المنطقية القصوى. فلم يتحقق لهؤلاء الانتصار على الطبيعة والسيطرة على قواها فحسب، بل تحقق لهم أيضًا السيطرة على إخوانهم في البشرية وتسخيرهم مثلما نسخر المعادن والطاقات والموارد الصماء سواء بسواء..!

نحو مجهول جديد

"كان التأويل الذي وصلت إليه معقولًا جدًا في نظري.. ولكن احترامي للمنهج العلمي جعلني أعتبر هذا التعليل مجرد ترجيح لا يرقى إلى مقام الحقيقة المقطوع بصوابها.. وقد يدخل عليه البحث تعديلات جزئية أو كلية، وقد ثبت بطلانه المطلق..

"وحتى على فرض صواب هذا الرأي، لابد أن يكون نجم هذه الحضارة الجبارة قد جاوز منذ زمن طويل جدًا أوجه.. وطال جموحه إلى مغيب الحضارات في مهاوي الانحلال، بل أن هذه الحضارة كما شهدتها كانت ممعنة أمعانًا لا يستهان به في التحلل.. فضمانات الحياة وأمانها المستقر بالنسبة لسكان وجه الأرض قد أدى بهم بالتدرب البطيء إلى الضالة في الحجم وفي الفترة وفي اللقاء، ولم يكن التطور ماثلًا أمامى بطبيعة الحال لأني لم أتتبع مراحله.. ولكن الثمرة الواقعية لذلك التطور كانت ماثلة أمام نظري، وكان التعليل بالانحلال نتيجة الإسراف المستمر في الحضارة والطمأنينة والترف هو التفسير الوحيد الخروج هؤلاء الأقوام الصفار من أصلاب بشرية يمثلها جيلنا الحاضر..

"وأما بالنسبة للعالم السفلي وسكانه، فلم يكن الرأي عندي قد استقر بعد.. فما رأيته من أولئك "المورلوك"– وبهذا الإسم يدعى أشباه القرود سكان ما تحت وجه الأرض– تراءى لي بسببه أن التغييرات التي

حدثت لفصيلتهم كانت أعمق وأضخم مهما حدث للفصيلة الجميلة التي تمرح في ضوء الشمس، واسمهم كما علمت "ايلوى"...

"ثم ساورتني بعد ذلك شكوك مقلقة.. لماذا استولى: "المورلوك" على آلة الزمن؟ فقد خامرني الاحساس القوي بأنهم هم الذين أخفوها.. "فالا يلوي" ليست لديهم القوة ولا الذكاء ولا الاكتراث للقيام بذلك العمل في حالة اضمحلالهم الفكري والبدني.. وحتى لو أنهم هم الذين أخفوها، فصداقتي لهم كان ينبغي أن تجعلهم يعبدونها.. ثم لماذا يخشى "الأيلوى" الظلام بهذا الشكل؟

"ثم وجهت كل هذه الأسئلة إلى "وينا" وحاولت كما ذكرت لكم آنفًا أن أعرف منها شيئًا عن العالم السفلى، ولكن خاب ظني. وفي بداية الأمر لم تفهم المراد من أسئلتي.. ولما فهمته رفضت الإجابة. وأخذت ترتجف وكان الموضوع الذي أخوض فيه كريه بدرجة تفوق الاحتمال.. فشددت عليها، ولعلني أسرفت في الإلحاح، فانفجرت باكية..!

"وكانت هذه أول قطرات من الدمع أشاهدها في هذا العصر الذهبي، فيما عدا دموعي شخصيًا بطبيعة الحال.. فلما رأيتها تبكى زايلني كل اهتمام "بالمورلوك" واتجه همي كله إلى تجفيف دموع "وينا" ومحو الأسى من نفسها اللطيفة البريئة. وسرعان ما أشرق وجهها بالابتسام، وراحت تصفق بيديها دهشة وطربًا وإعجابًا عندما أشعلت أمام ناظريها عود ثقاب...

"وقد يدهشكم أن تعلموا أني قضيت يومين بعد ذلك محجمًا عن مواصلة الاستقصاء والتحري عن أسرار "المورلوك" وحياتهم الخفية في الظلام، فقد داخلني نفور عجيب من تلك الأجساد الناحية التي يشبه ابيضاضها تلك الديدان وما إليها من الكائنات الحية التي نشاهدها محفوظة في الكحول عندما تزور متاحف الحيوان. ثم أن ملمسهم بارد بصورة مقززة.. ولعل نفوري منهم راجع– إلى حد كبير– إلى ميل عواطفي نحو "الإيلوي".. وتقززهم من "المورلوك" شديد.

وفي الليلة التالية على كل حال لم أنم نومًا طيبًا.. ولعل صحتي كانت متوعكة بعض الشيء بسبب ما أعانيه من الاضطرابات والحيرة والشك. وخامرني في تلك الليلة، مرة أو مرتين، شعور عميق بالخوف لم أجد له مبررًا واضحًا. وأذكر أنني تسللت من حجرتي المنفردة بلا صوت إلى البهو الكبير الذي تجمع القوم للنوم فيه تحت ضوء القمر.. وكانت "وينا" في تلك الليلة نائمة بينهم، فشعرت بالطمأنينة الوجودي معهم.

"وخطر لي عندئذ إن التهور سيتفاءل بعد بضعة أيام، ويدخل في التربيع الأخير، فتكون الظلمة في الليل أنشد وتتسع الفرصة أمام "الورلوك" لإرتياد وجه الأرض أثناء الليل الحالك، فقضيت اليومين التاليين وأنا أتوجس مما سيحدث، ولكني أرى الأقدام واجبًا تحتمة الظروف.. فإن كان مقدرًا لآلة الزمان أن تسترد، فالوسيلة الوحيدة لذلك هي هتك

الستار عما يكتنف ذلك العالم السفلي من أسرار، ولكني مع هذا كنت مشفقًا من مواجهة ذلك المجهول..

"وتمنيت لو كان لى في مشروعاتي الكشفية التي أزمع القيام بها رفيق يؤنسني.. بيد أن الوحدة التي أوجدتني الظروف فيها كانت من نوع جائر موحش. وكلما تخيلت نفسي وأنا أهم بتسلق الدرج داخل البشر إلى الأغوار المظلمة ينقبض قلبي، لأني لم أشعر بأي نوع من الطمأنينة لما يمكن أن يجري وراء ظهري.. وتحيرت كيف أحمي ظهري من السوائل في الظلام..

"ولعل هذا الافتقار إلى الاستقرار والطمانينة، هو الذي قاد قدمى إلى مناطق بعيدة عبر الخمائل والبساتين والتلال في رحلات كشقية أحاول بها أن أسري من نفسي ما ألقاه من الشكوك والوجل..

"واتجهت في تلك الرحلات إلى الجنوب الغربي صوب المنطقة المعروفة الآن باسم غابة "كومب". وهناك لمحت من بعيد بناء ضخمًا شامخًا أخضر اللون، يختلف طابعة العام عن جميع الأبنية التي شاهدتها من قبل.. بهو أكبر مساحة من أرض القصور والأطلال التي مرت بي، وواجهته ذات طابع شرقي، يشع منها بريق أخضر شاحب ضارب إلى الزرقة ذكرني بنوع معين من الخزف الصيني.

"وأوحى إلي هذا الاختلاف في المنظر اختلافًا في الاستعمال، فقررت أن أمضي في استكشافي صوب ذلك القصر.. ولكن الساعة كانت

متأخرة، والتعب كان قد نال مني. فاعتزمت تأجيل المغامرة إلى اليوم التالي، ثم عدت إلى "وينا" وما استقبلتني به من ابتهاج وملاطفة.

"وفي الصباح التالي اتضح لي أن ما أثاره قصر الخزف الأخضر من الفضول مدعاة لصدمة جديدة من خيبة الآمال. وليس من الاكتشاف والرحلة أي جدوى سوى أو جاء الخطوة الحاسمة يومًا آخر. وقررت على الأثر أن أهل البشر من غير تضييع الوقت، فاتجهت في أول النهار نحو بئر قريبة من الخرائب التي تكثر فيها كتل الجرانيت والألومنيوم..

"وكانت "وينا" الصغيرة تجري بجانبي، أو لعله من الأوفق أن أقول أنها كانت تتواثب وترقص في أثرى، إلى أن بلغت البئر.. فلما رأتني أنحني فوق فوهتها وأطل في أغوارها، بدا عليها الهم بصورة غريبة.. فرفعتها بين ذراعي وقبلتها ثم وضعتها على الأرض قائلًا:

– وداعًا يا عزيزتي الصغيرة "وينا"..

"ثم أخذت أتحسس حافة البئر بحثًا عن الدرج ومقابض السياج، وكنت أفعل ذلك في عجلة لأني خفت عند الابطاء أن تخذلني إرادتي وأعدل عن الرحلة..

"وكانت "وينا" في اللحظات الأولى ترمقني بدهشة بالغة وحيرة شديدة، ثم أطلقت صرخة فظيعة وجرت نحوي وتعلقت بي.. وراحت تجذبني وتشدني يديها الصغيرتين. وأعتقد أن معارضتها زادت من توتر أعصابى، وحفزتني على المضي، فدفعتها عني، وأخالني كنت فظًا بعض

الشيء، وفي اللحظة التالية كنت قد اعتليها الدرج وصرت في حلق البئر. ورأيت الذعر البالغ على ملامحها الجميلة، فابتسمت كي أوحي إليها بالطمأنينة.. ثم انصرف اهتمامي إلى القضبان التي أتعلق بها في هبوطي خوفًا من أن تكون غير متينة..

"واستمرت عملية الهبوط مقدار مائتي ياردة.. والدرج عبارة عن قضبان من المعدن بارزة من جدار البئر، على مسافات مخصصة لمخلوق أقل مني حجمًا وأخف وزنًا. ولذا أدركني التعب بسرعة.. وليت الأمر وقف عند حد التعب إذن لهان الخطب فقد التوى أحد تلك القضبان فجأة وكاد يلقي بي إلى الأغوار السحيقة من تحتي، وظللت لحظة وأنا معلق من يد واحدة.. ولكن الله سلم. وكان ذلك درسًا لي كي لا أتوقف للراحة وأنا معلق بتلك القضبان، وواصلت الهبوط بعد المائتي ياردة وعضلاتى تؤلمني ألمًا شديدًا. و كلما نظرت إلى فوق رأيت من خلال فوهة البئر قرص السماء الزرقاء ووجه "وينا" يبدو كنقطة سوداء.

صراع

وأخيرًا لمحت كومة تبعد نصف خطوة عن يميني في جدار البئر.. وتنفست الصعداء وأنا أدس بنفسي في فوهتها، فإذا بي في نفق أفقي، فألقيت بنفسي على الأرض والتمست شيئًا من الراحة التي طال احتياجي إليها، والحقيقة أنني لم أشعر بمبلغ تعبي إلا عندما ألقيت بجسمي الجهد على أرض النفق، وسمحت لعضلاتى المجهدة أن تسترخي.. والأعجب من هذا أن ذعري من خطر السقوط، وأنا أهبط البئر، لم يتجسم أمامي إلا بعد لحظة الوصول!..

"ولست أدري كم مضى من الوقت وأنا متعلق بتلك الصورة على أرض النفق عند الكرة التي تصله بالبئر، فلم أنتبه إلا على لمسات يد ناعمة تتحسس وجهي!

"وهببت واقفًا في ذعر، وعمدت يدي إلى علبة الثقاب فأشعلت عوًدا منها على عجل، فرأيت في ضوئه المتوهج وسط الظلمة الدامسة ثلاثة مخلوقات مطاطة شبيهة بذلك المخلوق الذي رأيته من قبل بين الأطلال فوق وجه الأرض، وكان الثلاثة يتراجعون أمام ضوء الثقاب. ولي في هذا وجه للعجب، فما داموا يعيشون في الظلام الحالك.. فلابد أن تكون عيونهم كبيرة الحجم شديدة الحساسية لأشعة الضوء، شأنهم في ذلك شأن الأسماك التي تعيش في الأغوار السحيقة من البحار. وحدقاتهم تعكس

الضوء بوضوح في تلك الظلمة التي تبدو لي تامة خالية كل الخلو من أشعة الضوء.. ولم يبد عليهم أي خوف مني فيما عدا عود الثقاب الذي أشعلته، فجعلهم يفرون بغير تفكير وبغير تردد ليتواروا في منعطفات النفق المظلمة.. وهناك كمنوا ليرمقوني بنظراتهم بصورة غريبة كل الغرابة..

"وحاولت أن أناديهم ليدنوا مني.. ولكن يبدو أن لغتهم كانت مختلفة كل الاختلاف عن لغة "الإيلوى" سكان وجه الأرض. وفت هذا في عضدي بصورة واضحة، حتى أنني فكرت في العودة بعد أن صرت على أبواب اكتشاف ماثل لعيني، ولكني قلت لنفسي:

– لقد أمسى التراجع مستحيلًا الآن، وليس أمامك إلا المضي في الاكتشاف!

"ورحت أتحسس طريقي على طول النفق، فوجدت ضجة الآلات تزداد بصورة ملحوظة.. ثم اتسع النفق ووجدت نفسي في رحبة فسيحة فأشعلت عود ثقاب آخر، ورأيت على ضوئه أنني داخل كهف هائل كثير الأعمدة والأقبية، تمتد أبعاده في الظلمة الحالية فيما وراء النطاق الذي يصل إليه ضوء الثقاب، فهذا الضوء الهزيل هو أقصى ماتيسر لي..

"وأكاد أجزم أن ذاكرتي في هذا الموضع يكتنفها الغموض.. فما بقي في ذهني من المشاهدات في تلك اللمحة هو منظر أشكال ضخمة جاثمة في الظلام أشبه ما تكون بالآلات الكبيرة، تترامى ظلالها الضخمة في ضوء الثقاب. وفي هذه الظلال توارى "المورلوك" من الوهج المزعج.. ولما أوغلت

قليلًا أحسست بالهواء يثقل على صدري، ولم يكن خاليًا من الرائحة، ولست أعنى رائحة الرطوبة المفروض أنها تفوح من أعماق الأرض، بل أعني رائحة أخرى أيضًا أجفلت منها، لأنها رائحة دم حديث عهد بالسفك، وهي رائحة لم يعهدها أنفي في ذلك العصر الذهبي من قبل..

"وفطنت على الأثر لوجود مائدة صغيرة من المعدن الأبيض وضمت فوقها صحاف وجبة من طعام.. فلما دققت النظر علمت أن "المورلوك" من آكلة اللحوم. ونظرت إلى الفخذ الأحمر وتعجبت، فما هو هذا الحيوان الكبير الحجم الذي ظل باقيًا ولم ينقرض؟!

"وكان الموقف على الجملة رهيبًا.. فرائحة الدم مثيرة، ومنظر اللحم النيئ كريه. والظلال الضخمة يكمن فيها. هؤلاء "المولوك" في انتظار انطفاء عود الثقاب كي يهجموا علي! وسرعان ما أتت النار على العود وأوشكت أن تحرق أصبعي، فألقيت به على الأرض.

"وشعرت بالسخط على نفسي لسوء تقديري للفروض عندما بدأت هذه المغامرة الفذة. فقد كنت من الطيش بحيث رتبت أموري وأنا أستقل آلة الزمن على أساس واحد، هو أن أهل المستقبل سيكونون أرقى منا من جميع النواحي، ولم يخطر ببالي أن التطور قد يعني في مرحلة من المراحل الانحدار والانحلال، وفاتني كذلك أن لكل شيء إذا ما تم نقصان، فمجاوزة الحد في السيطرة على العلم وقوى الطبيعة مجلبة للراحة الطويلة التي هي باب الضعف والفساد..

"وبسبب هذا التقدير المختل، لم أجلب معي إلى دنيا المستقبل أسلحة من أي نوع، ولا عقاقير.. حتى الطباق لم أحضره معي ظنًا مني أنه سيكون ميسورًا. وكم هفت نفسي إلى أنفاس من الطباق في تلك الوحشة المحفوفة بالحيرة والضيق.. بل أسوأ من هذا وذاك، أني لم أحضر معي كمية كافية من الثقاب، وأه لو كنت فكرت في إحضار آلة تصوير! إذن لأمكنني أن ألتقط في طرفة عين ذلك النظر الفريد للعالم السفلي، وكان في وسعي ألا أعتمد على الذاكرة الخوانة، فأنظر وأتمعن في الصورة الآن على مهل، وأعرضها على أنظاركم.. ولكن الواقع المؤسف لاتغني فيه الحسرات، وهكذا وجدت نفسي واقفًا هناك مجردًا من كل سلاح سوى القوة التي زودتني بها الطبيعة متمثلة في يدي ورجلي وأسناني، بالإضافة إلى أربعة أعواد من الثقاب بقيت في حوزتي!

"وكنت خائفًا من شق طريقي وسط كل تلك الآلات في الظلام.. وندمت جدًا على إسرافي في اشعال أعواد الثقاب التسلية "وينا"، ولكن لم يخطر ببالي من قبل أن الحاجة ستكون ماسة للاقتصاد في شيء زهيد كهذا، ولا سيما أن منظر العجب البريء على وجوه "الأيلوي" اللطيفة عند رؤية النار الغريبة عن عالمهم تمامًا كان يغريني بالإسراف في تلك المتعة!..

"وهاأنذا الآن وليس تحت يدي إلا أربعة أعواد، وقد أطبق الظلام من حولي، وها هي ذي يد ناعمة تلمس يدي وها هي ذي أصابع رخوة تتحسم وجهي، وملأت خياشيمى رائحة نفاذة غير مستحبة، وخيل إلى أني

أسمع تنفس جمهرة من أولئك المخلوقات البغيضة، ثم شعرت بعلبة الثقاب تستل من يدي بلطف، ولكني أطبقت يدي عليها. وامتدت أيد أخرى وراء ظهري تتحسس ثيابي، فاستولى علي اشمئزاز شديد. وزاد من وطأة الأمر على نفسي، أني كنت أجهل تمام الجهل أسلوبهم في التفكير.. فلم أدر ماذا يمكن أن يفعلوا في أي لحظة بشخصي؟

"وأول ماخطر ببالي هو الصراخ.. فجعلت أزجرهم بصوت مرتفع، حاولت أن أجعله أفخم ما في وسعي.. فأجفلوا مبتعدين عني، بيد أن ابتعادهم لم يدم لحظة واحدة، ثم أحسست بهم يقتربون مني وقد تعلقوا بي بجرأة أشد، وهم بتهامسون بأشياء لا أدري ما هي فأصواتهم بدت غريبة جدًا في أذني.. وارتعدت أوصالي ارتعادًا قويًا، وصرخت فيهم صرخات متقطعة لا معنى لها. ولكنهم في هذه المرة لم يفزعوا فزعًا جديًا، واخلوا يضحكون بنبرة غريبة منفرة وهم يريدون من التصاقهم بي..

"وأعترف لكم أني خفت خوفًا شديدًا جدًا.. ولذا قررت أن أشعل عود ثقاب ثم أفر هاربًا محتميًا بوهجه، وهكذا فعلت.. فقد أخرجت ورقة من جيبي أشعلتها من الثقاب، وبذلك استطعت الوصول إلى مدخل النفق..

"وما كدت أصل إلى الداخل حتى احترقت الورقة عن آخرها، وسمعت في جوف الظلام حركات "المورلوك" ولغطهم كأنه وسوسة الريح بين أوراق الشجر أو سقوط المطر على زجاج النوافذ.. ثم جدوا في أثري..

"وما هي إلا لحظة حتى تعلقت بي أيد كثيرة.. وكان واضحًا كل الوضوح أنهم يحاولون إعادتي إلى داخل النفق، فلم أجد بدًا من إشعال ثقاب آخر لوحت بضوئه في وجوههم، ولا يمكنكم أن تتصوروا بشاعة سحنهم عن قرب.. لقد أصابني الغثيان من تلك الوجوه الشاحبة الخالية من الأذقان، وتلك العيون الحمراء العاطلة من الأهداب والجفون، وهم يحملقون مذهولين وقد أعماهم ضوء الثقاب.

"ولكني لم أتريث لأعيد النظر، بل أسرعت بالتراجع.. ولما أنطفأ عود الثقاب الثاني أشعلت الثالث، وأوشك أن ينتهي عندما وضعت يدي على أول مقبض في جدار البئر وفي تلك اللحظة امتدت أيدي "المورلوك" إلى أقدمي، وأخذوا يجذبونني. فأشعلت العمود الرابع بيد إنه انطفأ.. فاستجمعت قوتي وجعلت أرفس، وتخلصت منهم ما عدا واحدًا تعلق برجلي وأوشك أن يستبقى حذائي غنيمة باردة في يده!

"وخيل إلي أن التسلق لا يؤذن بانتهاء.. وأصابني في الثلاثين قدمًا الاخيرة غثيان فظيع، ووجدت مشقة كبيرة في الاحتفاظ بتوازني. أما الأقدام الأخيرة فكانت صراعًا هائلًا ضد الاغماء.. وكم مرة دارت رأسي وخيل إلى أني واقع لا محالة في الجب..

"وأخيرًا قيض لي الصمود، ووصلت إلى سطح الأرض، وما إن أحسست بضوء الشمس يقهرنى حتى أرتميت على العشب. وكانت التربة

تبدو لي زكية الرائحة بعد تلك الفترة القاسية من التخبط في الظلام والعفونة.

"وأذكر تمامًا أنني تنبهت على "وينا" وهي تقبل يدي وأذني. ومن حولها جماعة من "الإيلوى"، يلغطون بأصواتهم المرحة الرخيمة. ثم لم أذكر بعد ذلك شيئًا لأنني فقدت رشدي في نوبة إغماء طويلة..

"والحقيقة أن حالتي بدت لي الآن، وقد صارت أسوأ من ذي قبل، لأنني كنت قبل تلك الخطوة لا أشعر باليأس.. وكان قلقي وجزعي لضياع آلة الزمن يكتنفه دائمًا أمل في الفرار والنجاة. بيد أن هذا الأمل قد ارتطم الآن على صخرة اكتشافات الجديدة.. وفيما مضى أيضًا كنت أخالني متحللًا من الموانع والعوائق اللهم إلا بساطة أولئك الأقوام الصغار وسذاجتهم المالية إلى جانب بعض القوى المجهولة التي كنت أفتي النفس بأنني حري أن أتغلب عليها متى أحسنت فهمها. أما الآن فقد برز إلى الميدان عنصر جديد تمامًا.. عنصر مزعج مقزز هو هؤلاء "المورلوك".. ففيهم شيء لا إنساني، شيء ينبض بالشر.

الظلام

"والعدو الذي كنت أرهبه قد يدهشكم أن تعرفوه.. فما كان ذلك العدد سوى الظلام الذي يسود في ليالي المحاق والهلال الوليد، وكانت "وينا" قد غرست هذه الفكرة في ذهني ببعض الفكرة في ذهني ببعض ملاحظاتها التي بدت لي في أول الأمر غير مفهومة، وكلها ملاحظات بصدد ما سمعته "الليالي الحالكة الظلام" أما الآن فلم يكن من العسير على أن أفسر تلك الأقوال، والصور على ضوء تجربتي الرهيبة ما يمكن أن تعنيه الليالي المظلمة القادمة..

"وكان القمر بعد اكتماله الماضي في نقصان متواصل وكل ليلة تزيد فيها فترة الظلمة الحالكة عن الليلة السابقة.. وهاأنذا لأن أفقه- ولو بوجه التخمين علي الأقل- سبب خوف أولئك الأقوام الصغار من خلفيات الليل. وصرت أتساءل في قلق، وأتخيل في غموض ألوان الشرور الوبيلة التي قد يقترفها "المورلوك" في ختام الدورة القمرية ومطلع الدورة التالية. ثم أسلمني التفكير إلى الاعتقاد اعتقادًا جازمًا بأن تأويلي السابق لتحول السلالات البشرية إلى فصيلتين من السادة والعبيد أو الحكام والصناع كان عرضة للخطأ..

"إن الفصيلتين اللتين نتجتا عن تطور الإنسان في المدى البعيد قد اتجهتا إلى نوع جديد تمامًا من العلاقات فاعترى الانحلال فصيلة "الإيلوي"

الحاكمين المسيطرين حتى انتهت سلالتهم إلى أولئك الأفراد التافهين الذين استنزفت الرخاوة والترف قوة طباعهم وطاقة ذكائهم.. فهم وإن بقيت لهم ملكية الأرض على سطح كوكبنا، لأن أجيال "المورلوك" المتعاقبة ألفت حياة الظلام وصار الضياء يؤذيهم أذى أليمًا، فإن العلاقة لم تعد علاقة سيطرة.. بل الأقرب إلى الرجحان أن "المورلوك" يخدمون "الإيلوى" ويقدمون إليهم الاكسية الفخمة ووسائل الغذاء والحياة جريًا على عادة قديمة موروثة.. مثلما ورث الجواد عادة نبش الأرض بسنابكه، أو مثلما يستطيب الإنسان قتل الطير والوحش على سبيل الرياضة لأن الأجداد القدامي كانوا يفعلون ذلك عن ضرورة.. فلما زالت الضرورة والحاجة بقيت عادة الفعل المتوارثة تؤدى لغير غاية واضحة!

"ولكن من الواضح أن النظام القديم قد بقيت له آثار وظلال.. فالإنسان الذي قهر أخاه الإنسان قبل آلاف الأجيال ونفاه من عالمه المضيء إلى عالم الظلام، ها هو ذا يجد أخاه قد عاد إليه بعد الغيبة الطويلة، وقد تغير كلاهما بحكم بيئة حياته. ولذا نرى "الإيلوى" يستعيدون شيئًا كانوا قد فقدوه، ويتلفتون على يد "المورلوك" درسًا يرد إلى وجدانهم الإحساس بالخوف.. وهذا الإحساس الذي كانوا قد نسوه منذ مئات الألوف من السنين..

"وعندما وصلت في تأملاتي وتقديراتي إلى هذا الحد تذكرت فجأة منظر ذلك اللحم الذي رأيته على المائدة المعدنية في العالم السفلى.. وكان

عجيبًا في الواقع أن تخطر ببالي هذه الفكرة وكأنها ليست جزءًا طبيعيًا من تيار أفكاري، بل على صورة سؤال ملح أشد الإلحاح على ذهنى من الخارج.. وحاولت أن أتذكر منظر ذلك اللحم، وخيل إلي أن في ذلك المنظر شيئًا غير مألوف، لست أدري ما هو.. ولكنني عندما ربطت بين ذلك اللحم وبين انقراض الحيوانات من وجه الأرض، ثم وضعت في كفة التقدير شدة الفزع الذي يشعر به "الإيلوى" إزاء "المورلوك" بدأت الصورة العامة تزداد وضوحًا وتكاد تبلغ حد اليقين.. وعلى الفور بدأ جهاز الغرائز والعقل عندي يعمل على المستوى المعهود في حياة سلالتنا البشرية الراهنة، ولئن كان الأقوام الصغار يشعرون أمام الخوف والجزع بالعجز والتهالك، فما كان هذا هو شعوري.. لم يفت الخوف في عضدي، ولم يشل تفكيري، بل زاده توقدًا ونشاطًا، وبدأت أفكر في اتخاذ وسائل الدفاع وعدته. وقررت أن أستعد بالأسلحة المناسبة، وأن يكون نومي في موضع حصين إن لم يتيسر أن يكون في موضع مأمون.. ففي استطاعتي متى وجدت هذا الحصن أن أتخذ منه قاعدة للدفاع والهجوم، أواجه منها أعدائي، بعد أن عرفت مدى الخطر الذي أتعرض له في ظلام الليل.. والحقيقة أنه لم يعد في استطاعتي أن أنام ما لم يكن فراشي بمنأى من هؤلاء الأعداء، وصرت أرتجف رعبًا كلما تخيلت كيف كانوا يفحصونني وأنا نائم لا أدري عن وجودهم شيئًا..

وخرجت أهيم طيلة بعد الظهر على طول مجرى التيمز بحثًا عن المأوى الأمين المنشود.. فلم أعثر على شيء يفي بالغرض على الصورة التي تكونت في ذهني، فجميع الأبنية والأشجار تبدو قريبة المنال غاية القرب من أولئك المخلوقات الماهرة في التسلق، بعد الذي شهدته بالفعل من براعة "المورلوك" في الصعود من الآبار العميقة أو الهبوط إليها..

"وعندئذ خطر لي قصر الخزف الأخضر وجدرانه اللامعة الناعمة.. ورجحت أنه قد يكون ملاذًا مناسبًا. وكان الوقت أصيلًا عندما حملت "وينا" كما أحمل الأطفال فوق كتفي، ورحت أصعد التلال متجهًا إلى الجنوب الغربي حيث ذلك القصر..

"والمسافة إلى ذلك القمر بدت في نظري بين سبعة أميال وثمانية، ولكنها في الواقع لم تكن لتقل عن ثمانية عشر ميلًا.. وكنت قد لمحت ذلك القصر بعد ظهر يوم رطب. ومن شأن الرطوبة أن تقصر المساقات تقصيرًا خادعًا، ويضاف إلى هذا أن كعب أحد الحدادين قد بلي، وأن مسمارًا آطل برأسه من النمل.. فكنت أمشي كالأعرج..

"وكانت الشمس قد غربت منذ وقت قصير، عندما بدأ شبح القصر لنظري من بعيد حالك السواد على صفحة من رقعة السماء باهتة الاصفرار.. وكانت "وينا" وقد أبدت سرورًا عظيمًا جدًا عندما وضعتها في بداية الأمر فوق كتفي وأخذت أسير بها.. ولكنها بعد فترة من الوقت رغبت إلي في أن أنزلها إلى الأرض وأنشأت تجرى بجانبى.. وتتركني بين

خطوة وأخرى لتبتعد عني يمنة او يسرة كي تقطف الزهار، وترشقها في جيوبي..

"والحقيقة أن جيوب ثيابي كانت مصدر حيرة مستمرة لـ "وينا" ثم استقر رأيها أخيرًا على أن هذه الفتحات نوع عجيب من الزهريات، أو هي على الأقل قررت أن تستخدمها في تلك الغاية، وهذا يذكرني بشيء كدت أنساه!.. فعندما غيرت سترتي وجد..!

وتوقف رحالة الزمن عن الكلام، ثم وضع يده فيجيبه وأخرج زهرتين ذابلتين ألقاهما على المنضدة الصغيرة تشبهان بعض الشيء أزهار الخبازي بيد أنها كانت كبيرة جدًا وبيضاء.. وبعد ذلك استأنف حديثه من حيث انقطع:

"ومع انتشار الظلام، وسيكون المساء فوق التلال، بدأ التعب يدب في أوصال "وينا" الرقيقة، وأرادت أن تعود إلى القصر المبني من الصخر الرمادي الذي تعودت أن تبيت فيه معي، فجعلت أشير إلى ناحية قصر الخزف الأخضر، وحاولت أن أفهمها أننا سوف نلتمس هناك ملاذًا أمينًا لنا من مخاوفها..

"وهل تعرفون ذلك الصمت الكبير الذي يرين على الأشياء قبل اشتداد العتمة؟.. حتى النسيم يكف عن تحريك ذؤابات الأشجار، وأنا أحس في لحظات ذلك الصمت بشيء من التوقع الغامض.. فالسماء تبدي صافية مترامينة الأبعاد، خالية إلا من البقايا الأخيرة لشعاعات الغروب. وفي تلك الليلة تملكت نفسي ألوان جديدة من المخاوف.. فكأنما

الرهف هذا الهدوء المعتم حواسي إرهافًا خارقًا للمعتاد.. حتى لقد خيل إلي أني أستطيع أن أشعر بتجوف الأرض تحت قدمي، وأكاد أيضًا أن أبصر خلال الثرى غدر"المورلوك" ورواحهم في نشاطهم الدائب وهم يتربصون انتظارًا لحلول الظلام الدامس ..

"وخيل إلي أيضًا في تلك اللحظة أن "المورلوك" سيتلقون غزوي لأوكارهم الغائرة البعيدة المزار وكأنه إعلان الحرب عليهم من جانبي.. ولكن لماذا على كل حال بدأوا هم العدوان بالاستيلاء على آلتي، آلة الزمن؟

"ومضينا في طريقنا والضياء يختفي رويدًا رويدًا.. ثم أخذت شفافية آفاق السماء تقل، وبرزت النجوم واحدًا تلو الأخر، واشتدت عتمة الأرض، وبرزت الأشجار ظلالًا سوداء.. وثقلت على "وينا" وطأة الخوف والتعب، فأخذتها بين ذراعي وجعلت أتحدث إليها وأداعبها وأهون عليها وأنا سائر في طريقي، فلما اشتدت العتمة لفيت ذراعيها حول عنقي وأغمضت عينيها ودست وجهها في كتفي.

عقوبة طبيعية

"على هذه الصورة، هبطنا سفح تل إلى وادٍ عميق.. وكدت في الظلام أتردى في مجرى نهر صغير، ثم خضت مياه القليل النور وخرجت إلى الضفة الأخرى.. فاجتزت عددًا من القصور المعدة للنوم في وسطها تمثال أشبه بتماثيل إله الحقول والرعاة، لولا أنه بغير رأس ومن حوله خميلة من الأشجار السنط...

"وإلى أن بلغت ذلك الموضع من رحلتي لم يظهر لي شيء من بوادر نشاط "المورلوك".. ولكن الليل لم يزل بعد طفلًا، والساعات الشديدة الحلكة التي تسبق ظهور التربيع الأخير من القمر لم يحن وقتها بعد، وفي كشف التل التالي، استطعت أن أرى غابة كثيفة مترامية تمتد ظلالها أمامي.. وترددت كثيرًا لأني لم أتبين لها آخرًا عن يمين أو يسار، وشعرت بالتعب.. وكان الكلال قد نال من قدمي بصفة خاصة، فتوقفت عن السير وأنزلت "وينا" عن كتفي ثم جلست فوق العشب....

"ولم أستطع وأنا جالس هناك، أن أرى هيكل قصر الخزف الأخضر بعد اشتداد الظلمة.. ولم أعد على يقين من صواب وجهتي، وأمعنت النظر في كثافة الغابة الملتفة الأشجار وتساءلت ما عساه يكمن في داخلها من المخاطر.. فمتى دخلها الإنسان ثابت النجوم من عينيه كلية. وعلى فرض أنه لا توجد هناك مخاوف من نوع آخر فحسبي أن جذور الأشجار

وفروعها ستجعلني أتخبط في طريقي. وأشتد إحساسي بالتعب بعد أن جلست، فقررت ألا أواجه متاعب السير في الغابة ليلًا، وفضلت أن أقضي الليل على سفح التل..

"وسرني أن لا "وينا" كانت غارقة في النوم فلففتها في سترتي وجلست بجانبها انتظر طلوع القمر، وكان الهدوء سائدًا والمكان خاليًا تمامًا، ولكن من أعماق الغابة المظلمة كنت أسمع أصواتًا في الحين بعد الحين تنم عن الحياة.. وكان وميض النجوم في السماء الصافية يؤنس وحشتي، وجعلت أتأمل صفحة السماء، فلاحظت أن المجموعات الفلكية العتيقة المألوفة لناقد تغيرت أوضاعها ونظمها وصارت منها مجموعات فير معهودة لنا.. اللهم إلا "طريق التبانة" فقد قالت فيما خيل إلى على حالها المعهود لنا نثارًا من شذرات مضيئة. وإلى الجنوب رأيت نجمًا أحمر كبير شديد المعان ليس لنابه عهد.. ونفعني التأمل في الكواكب ومساراتها لأنه أظهر– لي أن اهتماماتي ومخاوفي تافهة ضئيلة جدًا بالنسبة لرحابة الكون.. بل قد بدأ لي شأن الأرض كلها، وما يتجاذب الحياة الأرضية من المتاعب، بالغ الثفاهية في ذلك الضوء الكوني الذي ينبعث من نجوم تتحرك بانتظام والراد وعدم اكتراث من أغوار ماض مجهول إلى غياهب مستقبل مجهول...

"إن النجوم لم تزل على حالها، ومن الانسان قد تحول من كائن ذكي قوي إلى سلالة ضعيفة واهنة وسلالة أخرى متوحشة ضارية. وسرت في أوصالي رعشة، وزاد يقيني من أمر ذاك اللحم الذي رأيته على موائد

"المورلوك".. ونظرت إلى "وينا" الصغيرة وهي نائمة بجواري ووجهها الأبيض يبدو مشرقًا كالنجوم التي تلمع من فوقي..

"واجتهدت طوال تلك الليلة العصيبة أن ابتعد بذهنى قدر الطاقة عن التفكير في "المورلوك" وقصرت متن الليل بمحاولة العثور بين المجموعات السماوية على آثار تذكرني بالمجموعات القديمة. واحتفظت السماء بصفاتها إلا من سحابة عارضة بين حين وحين.. ولابد أنني هومت بضع مرات، حتى إذا بدأت يقظتي تتداعى ظهر في الأفق الشرقي شيء أشبه بإنعكاس نار لا لون لها. وعلى الأثر ظهر القمر كما يبدو في أخريات دورته شاحب الضياء..

"ولم يلبث ألقمر إلا قليلًا، ثم أخذت تباشير السحر تغير عليه وتغمره بنور باهت في أول الأمر، لم يلبث أن اصطبغ لون أرجواني دافيء..

"ولم يظهر لنا "المورلوك" ولم ألمح أثرًا فوق التل تلك الليلة.. وطلوع النهار ساورني الريب في مخاوفي ووقفت أتمطي فوجدت إحدى قدمي متورمة قليلًا عند كاحلي، وكعبي يؤلمني. فجلست مرة أخرى وخلعت الحذاءين وألقيت بهما بعيدًا، ثم أيقظت "وينا" ودخلنا معًا إلى جوف الغابة، فبدت في ضوء النهار خضراء يانعة تشرح الصدر.. وقطفنا من شجرها ثمارًا وفاكهة اتخذنا منها إفطارًا شهيًا. والتقينا في جنباتها بعدد من الأقوام الصغار يضحكون ويرقصون في ضوء القمر، كأنما لم يوجد في الدنيا شيء اسمه الليل يرهبهم ويفزعهم ومرة أخرى خطر لي ذلك اللحم الذي

رأيته على موائد "المورلوك" وداخلني اليقين من حقيقته، وشعرت في أعماق فؤادي بالشفقة على ذلك النسل الواهن الخارج من صلب بشريتنا.

"ولمع في ذهني من موارد غذاء "المورلوك" قد نضبت منذ زمن طويل.. وربما عاشوا أعوامًا على لحم الجرذان وما إلى ذلك من الهوام. ويظهر أن نفور الجنس البشري من اللحم الآدمي ليس نفورًا غريزيًا عريق الجذور، فانحدرت تلك السلالة في طعامها إلى مستوى ترفعت عنه القردة. ومما لاشك فيه أن أوائك "الورلوك" أبعد عن صفاتنا البشرية من أجدادنا القدامى سكان الكهوف آكلة لحوم البشر الذين عاشوا في هذه البلاد قبل أربعة آلاف سنة.

"فإذا أضفنا إلى هذا، أن الذكاء الراقي الذي يبغض إلينا آكل لحم بني جنسنا قد تلاشى، لقدرنا أن أولئك "المورلوك" لم يشعروا برادع من أنفسم وهم يمدون أيديهم إلى بني عمومتهم من "الإيلوى" ليتخذوا منهم غذاءً حيوانيًا...

"الإيلوى" بهذا الوضع هم قطعان ماشية يسمنها "المورلوك" في مراعي الأرض ومروجها الخضراء، ويقتنصون منها كلما احتاجوا إلى طعام. ولعلهم يرعونهم ويشرفون على تكثيرهم كما نشرف نحن على تربية الدواجن وقطعان الثيران!..

"هذا كله يدور في رأسي و "وينا" تتراقص في قمة النشوة وهي تجري بجانبي!

"وشرعت أحمي نفسي من سيطرة الفزع الذي بدأ يخيم على تفكيري.. وعللت النفس بأن هذا الانحدار الشديد الذي أصاب البشرية إنما هو عقوبة طبيعية للأنانية الحمقاء التي انغمس فيها جنسنا. فقد رضى الإنسان لنفسه أن يعيش مخلدًا للراحة والترف على ثمرات كدح إخوته في البشرية.. واتخذ شعارًا له أن الغاية تبرر الوسيلة، وأن الضرورات تبيح المحظورات فكان من الحق والعدل أن ينقلب سلاحه ضده.. وأن يذبح ويؤكل باسم هذه الضرورة عينها التي بررت له الأسترقاق والاستغلال والاستعباد..!

"وحاولت أن أحمل نفسي على شيء من الازدراء للتك السلالة الأرستقراطية المنحلة، ولكني لم أجد إلى ذلك الإحساس سبيلًا! فمهما بلغ من الإسفاف العقلي لدى أولئك "الإيلوى"، فلم تزل لهم الصورة البشرية الواضحة.. فلابد أن أشعر نحوهم بالعطف والرقة، ومن الحتم أن أشاركهم آلامهم ومخاوفهم..

"وكانت لدي فكرة غامضة جدًا عن الخطة التي سأنتهجها مستقبلًا.. وكانت غايتي الأولى أن أجد كما ذكرت ملاذًا أمينًا، ثم أحاول أن أتخذ من المعدن أو الحجارة أسلحة استعين بها على الدفاع، ومنه الغاية الأولى لا مناص من تحقيقها أولًا وعلى وجه السرعة.. ثم بعد ذلك يستحسن أن أحصل على وسيلة أو قد بها شعلة من النار تكون تحت

يدي، فقد علمت أنه ما من شيئًا فعل من تأثير النار في أولئك "المورلوك"!

"وكانت غايتي البعيدة، على كل حال، أن أصل إلى وسيلة أقتحم بها الأبواب البرونزية في قاعدة تمثال أبي الهول، لأني كنت واثقًا من عثوري على آلة الزمن داخل القاعدة لو استطعت أن أفتح الأبواب وأدخل إلى هناك وفي يدي شعلة مضيئة. ومتى حصلت على آلتي فلن أتردد في الفرار..

"ولا أكتمكم أني كنت أنوي أن آتي إلى زمننا الحاضر بالصغيرة "وينا" فوق كتفي، وعلى هذه النية استأنفت السير نحو قصر الخزف الأخضر.

متحف!

"وقرب الظهر وصلنا- أنا و "وينا"- إلى قصر الخزف الاخضر، فوجدته مهجورًا مهملًا وقد امتدت إليه يد الخراب تحيله أنقاضًا وإطلالًا. ولم يبق من الألواح الزجاجية في نوافذه إلا بقايا متناثرة أكثرها مهشم والواجهة الخضراء تساقطت منها مساحات كبيرة من الخزف، فتكشف عن هيكل معدنى متآكل..

"والقصر قائم على ارتفاع ضخم فوق أرض معشبة، تنتهي من جهة الشرق إلى حافة تل.. أظنها كانت فيما مضى شاطئ صخريًا ثم جف ماء البحر أو لعله تحول عن تلك البقعة، وكان هذا الخاطر سببًا في اتجاه تفكيري إلى البحر وما فيه من أحياء مائية وماذا عسى أن يكون قد حدث لتلك الأحياء من التغير والتطور كفاء ماحدث من التغير الخطير للأحياء البرية والسلالة البشرية..

"وبصعوبة ردرت ذهني عن الاسترسال في هذا التفكير، لأشغله بقصر الخزف الأخضر الشاهق المتداعي الأركان. ورحت أفحص مادة البناء القائم، وأقلب قطعًا من انقاضه المتنائرة، فصح عندي أن هذه المادة من الخزف. وعلى طوال الواجهة الثامنة رأيت كتابة بحروف غير معروفة لي. ولفرط حماقتي سبق إلى ظني أن "وينا" ربما استطاعت أن تقرأ لي تلك الكتابة أو تفسرها، ثم ثبت لي أن رأسها لم يدخله أي تصور لمعنى الكتابة

أو القراءة. والحقيقة أن "وينا" كانت تبدو لي على حظ من البشرية أكثر من حقيقتها، وربما كان السبب في هذا الوهم عندي أن عواطفها كانت بشرية جدًا، فخيل إلى أنها ذات عقل بشرى أيضًا.. مع أن الانحلال أصاب الجنس كله فتلاشي لديه كل أثر للتعلم كما نعهده!

"ولباب القصر مصراعان كبيران مهشمان.. تجاوزناهما فوجدنا شيئًا يخالف البهو الكبير المعهود في سائر القصور.. وجدها دهليزًا طويلًا جدًا يصل إليه النور من نوافد كثرة جانبية. وأول نظرة ألقيتها على ما حولي ذكرني بما رأيت بالمتاحف وكانت الأرض مكسوة ببلاط مربع تعلوها طبقة كثيفة جدًا من التراب.. وكذلك كانت سائر الأشياء المتباينة الغربية المنظر مدرجة في أكفان من الغبار الرمادى السميك، ثم لمحت في وسط الدهليز شيئًا غريبًا أمعنت فيه النظر فإذا به الجزء الأسفل من هيكل عظمي.. ومن منظر الاقدام المعوجة أدركت أنه هيكل حيوان منقرض، ثم وجدت الجمجمة والعظام العليا ملقاة في التراب.

"وتقدمت في الدهليز قليلًا، فوجدت هيكلًا عظميًا ضخمًا آخر لحيوان منقرض من نوع مختلف، فثبت عندي صواب ما افترضته من أن القصر أقيم ليكون متحفًا. واتجهت إلى الجدران الجانبية، فوجدت ما خيل إلى أنه رفوف. ولما نفضت الغبار الكثيف، بدت لعيني الصناديق الزجاجية المعهودة في زماننا هذا وكان لابد أن هذه الصناديق كانت مفرغة من الوراء

محكمة الإغلاق، لأن بعض محتوياتها ظلت محتفظة بكيانها الأصلي في حالة جيدة..

"وصار من الجلي في نظري وأننا نقف بين أطلال كنسينجتون الجنوبية في عهد من عهود مستقبلها الزاهر.. وأن قصر الخزف الأخضر هو قسم الحفريات. ولابد أن النماذج والقطاعات كانت مجموعة بالغة الروعة في حينها، وإن كان فعل الفساد الذي لابد منه على مدى الزمن قد أطاح بـ ٩٩٪ من قيمتها.

"وهنا وهناك وجدت بقايا متناثرة مبعثرة من نماذج نادرة محطمة أو منظومة في خيوط على شكل قلائد.. فأدركت أن هذا من أثر عبث أولئك القوم الصغار من "الإيلوى" أما الصناديق الزجاجية الثقيلة التي نقلت من مواضعها بقوة وعنف، فلابد أن الأيدي التي عبثت بها من أيدي "المورلوك".

"وكان المكان ساكنًا يخيم عليه صمت القبور، وبساط من التراب يخنق كل وقع لأقدامنا على الأرض.. وكانت "وينا" قد تركتني أفحص الصناديق والحفريات، وانصرفت إلى اللهو ببعض البقايا المبعثرة.. ثم تركت اللهو وجاءت ووقفت بجانبي، وتناولت بهدوء شديد يدي بيدها.

"ودهشت في بداية الأمر جدًا لما رأيته حولى من بقايا هذا الصرح الشامخ الذي يقوم شاهدًا على عصر منقرض من عصور العلم وتوقد الذكاء البشري. وأوشكت هذه الدهشة أن تشغلني عن التفكير فيما يمكن أن يستخدم فيه هذا المسرح، بل أوشكت مسألة آلة الزمن نفسها أن تغيب

عن ذهني فترة من الوقت، فإذا نظرنا إلى حجم ذلك البناء الضخم، وجدنا أن قصر الخزف الاخضر أكبر من أن يكون مجرد متحف للحفريات.. فلعله أقيم ليكون متحفًا تاريخيًا، بل لعله كان أيضًا دارًا للكتب..

"وراقني هذا الغرض الأخير، لأنني في تلك الظروف على الأقل كنت مشوقًا غاية الشوق بالاطلاع على كتب صدرت بعد زمننا بقرون.. فلا شك أنها أطرف وأجدى على المعرفة من منظر كل تلك الحفائر المتحللة!

"وعلى هذا الأساس رحت استكشف أقسامًا أخرى من البناء الكبير.. فعثرت على دهليز آخر قصير يتجه اتجاهًا عموديًا بالنسبة للدهليز الأصلي..

"ويبدو أن هذا الدهليز الصغير كان مخصصًا للمعادن. وما أن وقع نظرى على كتلة من الكبريت حتى انصرف تفكري في الحال إلى البارود، وعبثًا فتشت عن ملح البارود، بل إني لم اعثر في ذلك المتحف على أثر للنترات من أي نوع، ولابد أنها اختفت من الوجود منذ عصور بعيدة ..

"ويبدو أن الكبريت ظل مستوليًا على تفكيري، وقاد ذهني إلى ضروب من الخواطر.. بحيث لم تظفر سائر محتويات هذا الدهليز رغم قيمتها العلمية واحتفاظها بكيانها بشيء كثير من اهتمامي.. فأنا لست متخصصًا في علم المناجيم، ولذا وجهت خطاي إلى جناح من القصر ثقلت عليه وطأة القدم، وهو مواز للدهليز الأول.

"ويظهر أن هذا الجانب كان مخصصًا للتاريخ الطبيعي، إلا أن محتوياته جميعًا طمست يد العفاء معالمها.. فلم تبق إلا آثار لفيفة غامضة مما كان يومًا ما حيوانات محنطة أو نماذج لكائنات حية في حقاق من البللور كانت مملوءة في زمن من الأزمان بالكحول!

"وقد ساءني ما أصاب هذا القسم أيما إساءة، لأنه كان يسرني أن أقف على مراحل التكيف المتتابعة في الكائنات الحية على مر العصور..

"وانتقلنا بعد ذلك إلى بهو ضخم مترامي الأرجاء، ولكنه سيء الاضاءة جدًا.. وأرضيته تنحدر إلى الأسفل إنحدارًا يسيرًا ابتداءً من الطرف الذي دخلت منه هذا البهو.. وكانت تتدلى من السقف على مسافات متساوية كرات بيضاء ومعظمها مهشم، مما أوحي إلى بأن ذلك الموضع كان مضاءً فيما مضى إضاءة جيدة بوسائل صناعية..

"وشعرت أنني في هذا الموضع لست غريبًا كل الغربة فعلى الجانبين من ذلك البهو الضخم كتلة ضخمة من الآلات الكبيرة، وجميعها قد تأكل إلى حد كبير، وفريق منها تحطم أو تداعى ولكن طائفة منها بقيت قائمة لم ينقص منها شيء...

"وأنتم تعرفون شدة تعلقي بفنون الآلات وأسرار عملها.. وإذا ساورني ميل شديد للتلكؤ والتسكع، لا على سبيل الكسل أو الفضول الأجوف بل عسى أن ينكشف لي شيء من سرها. فمعظمها لا يلبي مظهره عن الغرض منه.. وخيل إلى أنني إن استطعت أن أعرف بعض

أسرار تلك الآلات، لاجتمع في يدي سلطان لا يستهان به، ربما نفعني أعظم النفع في كفاحي ضد "المورلوك"..

"وعلى حين غرة التصقت "وينا" بجانبي. وكان ذلك منها حركة مفاجئة جعلتني أجفل.. ولولا حركتها تلك لكنت حريًا أكبر الظن ألا أفطن إلى الانحدار الهين الذي في أرض القاعة، وربما كانت الأرض غير منحدرة أساسًا، وإنما جاء الانحدار من تشييد ذلك المتحف على جانب تل مثلًا..

"وعلى كل حال كان المدخل الذي نفذت منه مرتفعًا فوق سطح الأرض. ويفد إليه ضوء قليل من كوات صغيرة قليلة ضيقة.. فلما تقدمنا في البهو قليلًا، طغى سطح الأرض على مواضع الكوات وصار المكان أشبه بالجب لا ينفد إليه الضوء إلا من قرب السقف المرتفع..

"وتقدمت ببطء شديد، وأنا في عجب من أمر هذه الآلات الغريبة. واستغرق هذا العجب كل اهتمامي، فلم أفطن إلى تناقص الضوء تناقصًا تدريجيًا.. إلى أن نبهني التصاق "وينا" بي من استغراقي الذهني، وعندئذ تبينت أن القاعة يغوص مصائرها في ظلمة دامسة.

"وترددت برهة وأنا أنظر فيما حولي، فلاحظت أن التراب صار أقل غزارة في هذا الموضع، وأن سطحه ليس فيه استواء كذي قبل.. وألقيت بنظرة إلى الأمام نحو الجانب المظلم، فخيل إلي أن مسطح التراب الذي يغطى وجه الأرض التناثر عليه أقدام صغيرة ضيقة. فخامرني على الفور

الإحساس بوجود "المورلوك" عن كثب مني.. وشعرت أنني أبدد وقتي في فحص تلك الآلات فحصًا فنيًا، وتذكرت أننا أوغلنا في فترة ما بعد الظهر، فلم يتيسر لي بعد أن أدبر لنفسي سلاحًا أو وسيلة لإشعال النار كي أخيف بها أولئك "المورلوك".

المعركة

"وفي هذه اللحظة، سمعت من جوف الظلام في الطرف الأقصى للقاعة صوت هدير غريب مختلط بالأصوات التي سمعناها من قبل وأنا في أعماق البئر... فتناولت يد "وينا". ثم برقت في ذهني على الفور فكرة فتركتها والتفت إلى آلة رأيت لها رافعة على شكل قضيب مما يوجد في كشك الإشارة المستخدمة في الخطوط الحديدية..

"وقبضت على تلك الواقعة بيدي الاثنتين وضغطت بكل قوتي على الجهة اليمنى ثم اليسرى. وأخذت "وينا" تهمهم معربة عن قلقها.. ولكن لم تنقض دقيقة حتى كان القضيب الحديدي قد تحطم، وعدت إلى "وينا" وقد صار في يدي سلاح، فيه الكفاية– وما فوق الكفاية– لتحطيم جماجم "المورلوك" عند حدوث اللقاء المنتظر..

"ولا أكتمكم أنني كنت شديد الاشتياق لقتل واحد من أولئك "المورلوك" أو أكثر من واحد وهذا أمر يبدو لكم منافيًا للإنسانية، لأنه بمثابة الإقدام على قتل واحد من أفراد سلالته وذراريه!

"ولكني أؤكد لكم أنه كان من المستحيل على أن أشعر في تلك المخلوقات بأى أثر للآدمية.. ولذا لم يمنعني من شفاء عليلي بالدخول وسط الظلام وقتل أولئك الوحوش الذين أسمع أصواتهم إلا كراهتي لمفارقة

"وينا" وحدها واقتناعي أنني لو رويت ظمئي لقتلهم فإنهم قد يحطمون آلة الزمن..

وانطلقت خارجًا من تلك القاعة والقضبب الحديدي في إحدى يدي و"وينا" في اليد الأخرى.. ودخلنا قاعة أخرى أرحب من الأولى، ذكرتني لأول وهلة بالكنائس العسكرية التي تكثر فيها الأعلام والرايات.

"وكانت تلك الخرق الداكنة التي تتدلى من الجانبين عبارة عن البقايا المتحللة للكتب والأسفار أو قد أتت يد الزمن على كل أثر فيها للطباعة. ولو كنت من رجال الأدب والشعر لأنشأت قصيدة مرضوعها تفاهة كل لون من ألوان الطموح الأدبي أمام سلطان الفناء!

"أما وأنا لست إلا رجل علم، فما هزني في ذلك التحلل هو ضياع الجهود الضخمة التي تمثلها هذه الملايين من الأوراق المتحللة.. ولا أكتمكم أن ذهني انصرف في تلك اللحظة على الخصوص إلى مذكراتي العلمية في الفيزياء والبصريات.

"صعدنا بعد ذلك سلمًا عريضًا، أفضى بنا إلى ما كان يومًا ما قسمًا للكيمياء الصناعية.. فخامرني الأمل الكبير في العثور على أشياء نافعة. وكان هذا القسم بحالة جيدة اللهم إلا في الموضع الذي انهار سقفه في الناحية الأخرى من القاعة..

"واتجهت بلهفة إلى جميع الحقاق التي لم تتحطم.. وأخيرًا عثرت في حق زجاجي مفرغ من الهواء على صندوق النقاب. وبلهفة عظيمة جربت

الثقاب، فوجدته بحالة صالحة للاستعمال تمامًا، ولم تصل إليه الرطوبة والتفت إلى "وينا" وصحت بها في لغتها:

– أرقصي!..

"فأنا الآن أملك خير سلاح يدفع عنها غائلة تلك المخلوقات الفظيعة، ولذا رحت بين أطلال ذلك المتحف القفر الوحش، وفوق بساط من التراب نسجته يد الخراب في مئات الأجيال والأحقاب أرقص رقصة مرتجلة وأنا أصفر لحنًا من الألحان المرحة على قدر استطاعتي.. ولا شك أن تلك الرقصة كانت شيئًا فطريًا لا يخضع لأصول ذلك الفن الرفيع..

"وإني اعتقد الآن أن نجاة ذلك الصندوق من الثقاب من على الزمن المتوالي أجيالًا لا تعيها الذاكرة، أمر غاية في العجب.. وأن عثوري عليه كان من حسن طالعي.

"ولكني عثرت أيضًا على شيء أغرب من الثقاب، وهو الكافور.. وكان في قدر من البللور مختومة، وقد ظننت في البداية أنها قطعة من شمع البرافين الذي يصلح للإشتعال والإضاءة..

"وحطمت القدر على هذا الأساس.. فلما وجدت ما في الداخل كافورًا، كدت ألقيه من يدي ساخطًا لولا أنني تذكرت أن الكافور قابل للإشتعال، وأن ضوءه وهاج..فهو يصلح شمعة ممتازة عند اللزوم، وعلى هذا الاعتبار وضعت قطعة الكافور في جيبي.

"ولم أستطع العثور على أي نوع من المفرقعات أو أي وسيلة استعين بها على تحطيم البوابات النحاسية في قاعدة تمثال أبي الهول. وهكذا كان القضيب الحديدي الذي بيدي هو أقوى سلاح اتفق في الحصول عليه..

"ولكن هذا لم يقلل من عظمة ذلك الرواق ومحتوياته الكيماوية.. وليس في استطاعتي طبعًا أن أقص عليكم بالتفصيل جميع المكتشفات التي وفقت إليها بعد ظهر ذلك اليوم.. فهذا أمر يتطلب مجهودًا كبيرًا في التذكر وترتيب الوقائع وتسلسلها...

"وأذكر إنني دخلت متحفًا طويلًا تكدست فيه أنواع للأسلحة وقد علاها الصدأ.. وأذكر أيضًا أنني ترددت برهة بين القضيب الذي في يدي وبين بلطة أو سيف. ولكني تذكرت أني لا أعرف كيف استخدم البلطة أو السيف، وأن القضيب يصلح لأغراض كثيرة...

"ولم أستطع بطبيعة الحال أن أحمل مع القضيب أداة أخرى...

"وكانت هنالك أيضًا أنواع من البنادق والمسدسات.. ومعظمها صار كتلًا من الصدأ المتراكم، ولكن بعضًا منها كان من معدن لا يصدأ، ولكني لم أجد معها ذخيرتها. ويبدو أنها تحللت وصارت ترابًا بمرور الزمن..

"ولاحظت أن جانبًا من ذلك المتحف منهدم متخرب بخلاف سائر المواضع فيه.. فاعتقدت أن انفجارًا ربما حدث في الذخيرة المخزونة هناك...

"وفي قاعة منفصلة، رأيت مجموعة غريبة جدًا من التماثيل والأصنام منها الإغريقي والمكسيكى والفينيقي والإفريقي وما ينتمي إلى جميع شعوب الأرض فيما أظن.

"ودفعتني رغبة قوية مجهولة، فكتبت اسمي فوق أنف صنم بشمع الشكل من أصنام أمريكا الجنوبية استأثر لطرافته باهتمامي...

"وباقتراب المساء، أخذ الفضول يتضاءل، وكنت ند جست خلال أبهاء كثيرة ساكنة معظمها متهدم وكثيرًا مما فيها صار أكوامًا من الصدأ والتراب. وأخيرًا عثرت في دهليز منها على نموذج لمنجم من مناجم القصدير.

"وفي حق زجاجي مفرغ من الهواء رأيت قالبين من قوالب الديناميت!.. وصحت في فرح جنوني صيحة أرشميدس:

– وجدتها!.. وجدتها..

"وحطمت الحلق الزجاجي وأخرجت الديناميت بيد مرتعشة، ثم تسرب الشك إلى نفسي. وانتقيت دهليزًا جانبيًا مغيرًا لأجري فيه تجربتي.. ولا ـستطيع ـن أعبر لكم عن خيبة أملي، وقد انتظرت خمس دقائق... ثم عشر! ثم خمس عشرة دقيقة، دون أن يحدث الانفجار المرتقب..

"لقد كانت القوالب نماذج مقلدة.. ولولا هذا لاندفعت كالمجنون ونسفت تمثال أبي الهول وأبوابه البرونزية. ولو حدث هذا كنت قد نسفت أيضًا– كما اتضح لي فيما بعد كل أمل في استرداد آلة الزمن.!

"وأظن أننا انتهينا بعد ذلك إلى فناء مكشوف داخل أبنية القصر، وارضه مغطاة بالعشب الغزير، وفيه ثلاث شجرات من أشجار الفاكهة، وهنالك جلسنا استرحنا وأكلنا من الفاكهة..

"وقرب الغروب، بدأت أفكر في موقفنا.. فها هو الليل يزحف نحونا ويوشك أن يطبق عليها، وأنا لم أعثر بعد على الملاذ الأمين الذي لا تصل إليه يد العدو.

"ولكني لم اضطرب لذلك كثيرًا، ففي حوزتي الآن شيء لعله خير وسيلة للدفاع ضد "المورلوك".. إلا وهو الثقاب، وفي جيبي أيضًا كتلة من الكافور أستخدمها– إذا احتجت– شعلة متوهجة..

"وخيل إلي أن خير ما أصنعه في هذا الموقف، هو أن نقضي الليل في العراء تحت حماية شعلة وفي الصباح افكر في استرداد آلة الزمن، وأحاول تحطيم الأبواب النحاسية بالقضيب الحديدى.. عسى أن يكون هذا مجديًا..

النار

"وفي ظلمة الغسق خرجنا من القصر، والبقايا الأخيرة من أشعة الغروب تلوح في الأفق الغربي.. وفي نيتي عند طلوع النهار أن أتجه بخطى سريعة إلى موضع تمثال أبي الهول الأبيض لا بلغة في وقت مبكر، مخترقًا تلك الغابة الكثيفة التي اعترضت طريقي في رحلة القدوم..

"وتيسيرًا لهذه الخطة، قررت أن أقطع أكبر مسافة ممكنة في هذا الأصيل قبل أن أعسكر للمبيت في حماية نيران أشعلها في الأعشاب الجافة وفروع الشجر الصغيرة..

"وتحقيقًا لهذه الغاية، كنت أجمع وأنا منطلق في طريقي العيدان والأوراق الجافة التي أصادفها، إلى أن تجمع منها ما ملأ ذراعي.. وكان هذا العمل سببًا في الإبطاء من سرعة سيرنا عما قدرت من قبل..

"وفضلًا عن هذا كانت "وينا" متعبة، ولا تنسوا إنني كنت أعاني بصورة خفية من حاجتي إلى النعاس بعد مجهود ذلك اليوم الشاق..

"وكان الظلام قد خيم تمامًا قبل وصولنا إلى أطراف الغابة.. وعلى الأشجار المتناثرة عند سفح الجبل توقفت "وينا" عن السير، وأظهرت خوفها الشديد من قتلة الظلام الجاثية أمامها ممثلة في الغابة الملتفة..

"ولكن إحساسًا غامضًا بالقلق، جعلني أتقدم صاعدًا التل على حساب أعصابي وعضلاتي المجهدة.. فأنا لم أذق الثوم مدى ليلة ويومين، لذا كانت حرارتي مرتفعة وحالتي العصبية متوترة..

"وشعرت بالنوم يطبق على أجفاني.. وشعرت في الوقت نفسه أن "المورلوك" يتأهبون مع الليل والنوم للاطباق علي..

"وفيما نحن نتردد بين الأقدام والأحجام، لمحت بين أشباح الأشجار من خلفنا ثلاثة أشكال رابضة بين الأعشاب الطويلة والشجيرات، ولم أحس بالطمأنينة لهذا القرب..

"وكنت قد قدرت في النهار عرض الغابة بمقدار ميل تقريبًا.. فلو أننا استطعنا أن نخترقها إلى الجانب الآخر وهو سفح خال من الأشجار تقريبًا، لكان هذا أدعى لأمننا وسلامتنا عندما ننام..

"وخطر لي أنني بفضل الثقاب والكافور، ربما استطعت أن أشق أمامي طريقًا مضيئًا وسط الأشجار الكثيفة. وكان من البديهي أنني كي استخدم الثقاب وأشغله سأحتاج إلى يدي كلتيهما..

"وفي هذه الحالة، لابد لي من التخلي عن أخشاب الوقود التي جمعتها، وعلى مضض ألقيت حملي على الأرض، ثم خطر لي وأنا واقف أنظر إلى تلك الكومة بحسرة وأسى إنني حري أن أثير دهشة أصدقائي "المورلوك" بإشعال النار فيها كي يضطربوا ويذعروا..

"وقد تمخضت هذه الحماقة البالغة من عواقب وخيمة.. ولكني في تلك اللحظة لم أفكر إلا في استخدام النيران وسيلة لتغطية انسحابنا..

ولست أدري هل لديكم فكرة عن غرابة منظر النار في بقعة ليس فيها وجود للبشر– كما نعهدهم– مع اعتدال المناخ، وحرارة الشمس في ذلك الجو ليست لها القوة الكافية للإحراق.. حتى ولو عكست أشعتها وركزتها بللورات من قطرات الندى كما يحدث أحيانًا في المناطق الاستوائية، وأما البرق والصواعق فقد تقصف الشجر وتصيبه بالأسوداد والتفحيم، ولكنهما قلما يتسببان في إشعال حريق على نطاق واسع، والنباتات حين تتعفن وتتحلل، يصيبها التفحم من جراء حرارة اختمارها.. بيد أن هذا أيضًا قلما يفضي إلى إيقاد شعله..

"ومن الواضح أن حقبة الانحلال التي أصابت الأرض في ذلك الزمن الموغل في المستقبل، أنست السكان كل ذكرى للنار والاشتعال.. وهذا قد يقرب من أذهانكم مبلغ الغرابة التي اكتنفت منظر الألسنة الحمراء التي ارتفعت في الجو من كومة الأخشاب الجافة. وقد قرأت هذا العجب البالغ في سحنة "وينا"..

"وأول ما خطر لهذه البريئة الساذجة أن تهجم على ألسنة النار لتلهو بها.. وأعتقد أنني لو لم أمسكها بالقوة، لألقت بنفسها في تلك الألسنة الحمراء مفتونة بلونها وحركات تمايلها التي تشبه رقصة من رقصات الباليه..!

"وحملتها بين ذراعي بالقوة، ولم أبال بمقاومتها العنيفة حين رأتني أتقدم بها لأوغل بين أشجار الغابة.. وظل وهج النار يضئ لي الطريق فترة وجيزة، وبعد قليل نظرت إلى الوراء فاستطعت أن أرى من خلال الأشجار شيئًا لم يخطر ببالي من قبل.. فإن النار التي اشعلتها قد سرت من الكومة إلى الأعشاب الطويلة النامية فوق سفح التل، ودبت في الشجيرات المتناثرة الجافة النامية وسط تلك الأعشاب، حتى صنعت النار قوسًا يزداد اتساعها وتمعن في زحفها نحو قمة التل..

"وتحت ضغط تعبي وتوتر أعصابي، قابلت الأمر بالضحك كأنني غلام أبهج قلبه نجاح لعبته.. وانطلقت أشق الطريق لنفسي في ظلام الأشجار من أمامي، وكان الظلام حالكًا جدًا مما جعل "وينا" تتعلق برقبتي تعلقًا شديدًا. وتمكنت عيناي بعد أن ألفت الظلام من تمييز ما أمامي، بحيث كنت أفلح في تحاشي الجذور التي تعترض خطواتى والفروع التي تتشابك أمام وجهي.. أما من فوق رأسي، فكانت الظلمة تامة إلا في مواضع قليلة متناثرة تبدو منها زرقة السماء..

"ولم أشعل شيئًا من ثقابي لأن يدي كلتيهما كانتا مشغولتين.. ففوق ذراعي الأيسر كنت أحمل صغيرتى العزيزة "وينا" وفي يدي اليمنى كنت أحمل سلاحى الوحيد، وهو ذلك القضيب من الحديد الذي انتزعته من آلة قصر الخزف الأخضر..

"وظللت مسافة غير قصيرة لا يطرق سمعي شيء سوى موت تحطيم الأغصان والأوراق تحت وطأة قدمي، وحفيف الريح بين أغصان الشجر من فوق رأسي، وتردد أنفاسي في صدري، ودفقات الدماء مع خفقات الموت في عارضي.. ثم خيل إلى أنني أسمع وسوسة غريبة عن كثب مني، فزدت من سرعة سيري وحثثت الخطى وقد ازداد تجهم وجهي..

"وبدأ ما حسبته لنا يتجسد في سمعي.. فها هي الوسوسة تزداد، ووقع الأقدام يتضح.. وإذا بي أسمع تلك الأصوات المهمهمة التي سمعتها من قبل عند رحلتي في باطن الأرض من سكان ذلك العالم السفلي، فلم يبق عندي من شك في أنه بضعة من "المورلوك" وبين أشجار الغابة، وأنهم يدبرون خطة للإطباق على..

"وبعد دقيقة شعرت بشيء يجذب ذيل سترتي من الخلف.. ثم تحسست ذراعي يد غريبة.. وارتجفت "وينا" فوق صدري ارتجافة شديدة، ثم لاذت بكتفي وجمدت حركتها تمام الجهود..

"وأدركت أن الوقت قد حان لإشعال عود ثقاب، فلم يعد من ذلك مفر.. ولكني لكي أخرج الثقاب من جيبي يجب أن أضع "وينا" على الأرض. فوضعتها بين قدمي، وفي حين كانت يدي تنقب في جيبي عن الثقاب نشبت معركة في الظلام عند مستوى ركبتي..

"لزمت "وينا" في تلك المعركة جانب الصمت التام، أما "المورلوك" فكانوا يهمهمون بأصواتهم المعتادة.. وكانت أيد صغيرة من أيديهم الناعمة

تتحسس في الوقت نفسه سترتي وظهري وقفاي، ثم فجأة أشعلت عود تقاب، ورفعته أمام وجهي فرأيت ظهور "المورلوك" البيضاء وهي تتوارى لائذة بالفرار بين الأشجار..

"وبسرعة أخرجت كتلة الكافور من جيبي، وشرعت أعدها للاشتعال من عود الثقاب.. ثم ألقيت علي.. "وينا" نظرة فإذا بها راقدة على الأرض متشبثة بقدمي، وليس بها حراك، ووجهها إلى الأرض.. فانتابني الفزع عليها وانحنيت فوقها أتحسسها فلم أكد أتبين فيها نفسًا يتردد..

"فأشعلت كتلة الكافور على عجل، ثم ألقيتها على الأرض فتصاعدت منها ألسنة متوهجة طردت أشباه الظلام وفلول "المورلوك" وركعت على الأرض فرفعت "وينا" وخيل إلى عندئذ أن الغابة من خلفي كانت تزخر بهمهمة جيش كبير!

"ويبدو أنها كانت مغشيًا عليها، فوضعتها بعناية ورفق فوق كتفي.. ثم نهضت لأستانف طريقي، وعندئذ فطنت إلى حقيقة مروعة: فانشغالي بأشعال الثقاب ثم "وينا" جعلني أتحرك حول نفسي بضع مرات، فإذا بي الآن لا أدري أطلاقًا أين كانت وجهتي التي أسير فيها؟

الكابوس

"وليس ببعيد إطلاقًا أن أجد نفسي متجهًا إلى حيث يقوم قصر الخزف الأخضر، فأعود من حيث أتيت.. وتصبب جسمي بعرق بارد، وكان ينبغي أن أفكر في مخرج من هذا المأزق بسرعة فائقة، وخطر لي أن أجمع أوراقًا وأغصانًا، وأشعل نارًا نقضي في حمايتها ما بقى من الليل حيث نحن..

"ووضعت "وينا" على الأرض، وكانت لم تزل في حالة إغماء.. وبسرعة فائقة رحت أجمع العيدان والأوراق الجافة، ولم يفتني أن أنظر هنا وهناك، في كل مكان بين الشجر من حولي.. إلى عيون "المورلوك" المستديرة التي تتوقد كالجمر أو حبات الياقوت..

"وما إن تجمعت لي كومة من الوقود، حتى أتت النار على ما تبقى من كتلة الكافور.. فأشعلته على الفور عود ثقاب، وما إن توهج نوره حتى رأيت اثنين من "المورلوك" كانا بسبيل الانقضاض على "وينا" وقد أفزعهما الضوء ففرا هاربين.

"وبلغ من عمى أحدهما، أنه اتجه في فراره نحوي.. وسمعت صوت تحطم عظامه تحت اللكمة العنيفة التي أصابته من قبضة يدي.. وترنح في مشيته بعدها قليلًا، ثم سقط على الأرض بين الأشجار..

"وأخرجت من جيبي قطعة أخرى من الكافور، ورحت على ضوئها استكمل كومة الوقود.. ولاحظت أن الكثير من فروع الشجر من فوقي كانت جافة، وتذكرت أن المطر لم يسقط منذ قدومي على متن آلة الزمن، أي منذ أسبوع تقريبًا..

"وسهل هذا على العمل، لأنني لم أعد بحاجة إلى الانحناء فوق الأرض لأجمع التساقط من الورق والعيدان.. بل كنت أقفز واستنزل مجموعات من الأغصان الجافة، وسرعان ما تجمع عندي رصيد كبير من الوقود الجاف الذي فيه بقية من الخضرة، وأشعلت نارًا كثرة الدخان أتاحت لي اقتصاد الكثير من الكافور..

"وبعد ذلك التفت إلي حيث رقدت "وينا" وبجوارها القضيب الحديدي، وبذلت كل ما في وسعي لإنعاشها، ولكنها كانت شبه ميتة.. ولم أستطع أن أتبين أنفاسها وكان دخان النار قد بدأ يملأ الجو، وقدرت أن النار سوف لا تحتاج إلى إذكاء لمدة ساعة أخرى على الأقل. وعلى هذا الأساس سمحت لنفسي أن أستجيب لرغبتي الملحة في الجلوس لأظفر ببعض الراحة..

"وجلست قرب النار، وأخذت تملأ سمعي تلك الهمهمات.. وكل ما أذكره بعد ذلك أنني كنت أحملق حولي ورأسي يهتز، ولكن الظلام كان شديدًا..

"ولابد أني غفوت، فلم أتنبه إلا وأيدي "المورلوك" الصغيرة الناعمة على أعضاء جسمي.. فنفضت أصابعهم بسرعة عني، وأدخلت يدي في جيبي لاستخرج صندوق الثقاب، فإذا به غير موجود، والتحموا بي مرة أخرى في الظلام..

"وادركت ما حدث.. فإن النوم قد استغرقني، فلما خمدت النار هجموا علي. وكانت رائحة الدخان تملأ خياشيمي مختلطة برائحة خشب محترق، وعشرات الأيدي آخذة برقبتي وشعري وذراعي لتلقي بي إلى الأرض..

"وكان فظيعًا جدًا أن أشعر بكل تلك المخلوقات البشعة متكاكئة علي في الظلام، حتى كأنني ذبابة تتخبط بين خيوط عنكبوت أسطوري..

"وغلبت على أمري فهويت على الأرض، وشعرت بأسنان صغيرة تنشب في عنقي.. فتدحرجت على الأرض بسرعة، وعثرت يدي في الظلام بالقضيب الحديدي.. فبعث ذلك في أوصالي تيارًا جديدًا من القوة..

"واستجمعت شتات عزيمتي إلى أن تمكنت من الوقوف في وجه مقاومة عنيفة، وأخذت انفض تلك الجرذان البشرية عني.. وأمسكت بالقضيب الحديدي من منتصفه ثم أخذت أضرب في المستوى الذي قدرته لوجوه "المورلوك" وجماجمهم. وسمعت صوت تهشم العظام وتمتك اللحم تحت ضرباتي، وسرعان ما انفضوا عني..

"وفي اللحظة التالية اشتد شعوري باليأس من نتيجة المعركة.. ووضح عندي أنني و "وينا" مقضي علينا لا محالة، ولكني آليت على نفسي أن آخذ من أولئك "المورلوك" ثمن اللحم الذي سيأكلونه غاليًا.. وأسندت ظهري إلى شجرة، ورحت أطوح القضيب الحديدي أمامي..

"وامتلأت الغابة كلها بصيحات.. ومرت دقيقة، ثم خيل إلى أن ضجة أصواتهم قد زادت.. وأن حركتهم قد اشتدت، ولكن من غير أن يدنو أحدهم مني وأنا واقف في موضعي أحملق في الظلام..

"وبدأ الأمل يداعبني.. فماذا لو أن أولئك "المورلوك" قد شعروا بذلك الإحساس البشري الذي انقرض، ألا وهو الخوف؟

"وفي أعقاب بارقة ذلك الأمل، لاحت لعيني بوارق محسوسة من النور.. واستطعت أن أرى جثث ثلاثة من "المورلوك" صرعى على الأرض أمامي، ثم ازداد الضوء ورأيت عشرات وعشرات من فلول "المورلوك" وهم يولون الأدبار، وعشرات غيرهم يأتون سراعًا من خلفي لتواريهم الأشجار من أمامي في سيل لا ينقطع..

"وأدهشني أن أجد ظهور أولئك "المورلوك" حمراء لا بيضاء، ووسط هذا الذهولي الذي استولى على رأيت شرارة حمراء تطير في الجو بين فروع الأشجار ثم تختفي..

"عندئذ أدركت سر رائحة الخشب المحترق التي كانت تملأ خياشيمى، وسر تلك الهمهمة التي تحولت الآن إلى هدير، وسر ذلك الضياء، بل وسر لياذ "المورلوك" بالفرار..

"فلما التفت ورائي رأيت من خلال أعمدة الأشجار المتراصة ألسنة اللهب المشتعل في أطراف الغابة وهي تحترق.. وأدركت أن هذه هي النار التي أوقدتها قبل أن أدخل الغابة، وكأنها جاءت تتعقبنى!

"ونظرت إلى الموضع الذي كانت ترقد به "وينا" فلم أجد لها أثرًا.. ولكن الحريق ومنظر فلول "المورلوك" الهاربة وصراخهم لم تدع لي فرصة كبيرة للتفكير..

"وكان أول من هذا كله قرقعة النار وهي تشب في كل شجرة جديدة، فأخذت القضيب الحديدي في يدي ثم انطلقت في أعقاب "المورلوك"..

"وكان سباقًا رهيبًا.. ففي إحدى مراحله اندلعت النار بسرعة إلى اليسار وأخذت أجري لابتعد عن حصار النار، وأخيرًا وجدت نفسي في مساحة خالية من الشجر. وعندئذ أبصرت أحد "المورلوك" "قادمًا نحوي وهو يتخبط، واجتازني ثم ألقى بنفسه في النار إلقاءً!

"ورأيت على كتف التل عند الغابة عن كثب من تلك الساحة نحو أربعين من "المورلوك" أعماهم الضوء وأطاشت صوابهم الحرارة الشديدة، فراحوا يتخبطون بعضهم في البعض الآخر وهم يحاولون النجاة..

"فلم أدرك لأول وهلة أنهم في حالة عمى.. فانهلت عليهم بالقضيب الحديد بكل وحشية، أو على الأصح مدفوعًا بجنون الفزع منهم، فقتلت منهم بضعة وأصبت عددًا كبيرًا بإصابات بالغة..

"ثم فطنت إلى ما هم فيه من عجز بسبب الضوء والحرارة.. نبهني إلى ذلك أنات المختبئين منهم بأشجار العوسج الشوكية. وبعد فترة تضاءلت ألسنة النار، فخشيت أن يعود البصر إلى تلك المخلوقات فتهاجمني..

"وبدأت أفكر في مهاجمتهم قبل خمود النار تمامًا لأقتل منهم أكبر عدد ممكن.. ولكن تأجج النار مرة أخرى أعفاني من تلك العملية. ورحت أجوب أطراف الغابة من الخارج بحثًا عن أثر ينم عن "وينا" له ولكني بؤت بالخذلان..

"واخيرًا جلست على قمة التل، وجعلت أنظر لتلك المخلوقات العمياء وهي تغدو وتروح مترنح متخبطة وأصواتها المبهمة ترتفع.. أو أنظر إلى السماء ذات النجوم..

"وقد اعترضت نظري إلى السماء السحائب من الدخان الأسود، لم تعرفها أجواء ذلك العصر من عشرات الأجيال. وخامرني الاحساس بأنني عشت في تلك الليلة تحت سلطان كابوس طويل تقيل..

"وجعلت أضرب الأرض بقدمى، وأضرب وجهي وأقرص فخذي وأصرخ كي أوقظ نفسي من هذا السبات الفظيع..!

"وأخيرًا بدأت أضواء الفجر الأولى تطل من الأفق الشرقي، فانتهزت الفرصة وقمت لأبحث مرة أخرى– لعلها الأخيرة– عن "وينا" وكان من الواضح أن قانصيها أضطروا إلى التخلي عن جسدها الصغير وسط الغابة المحترقة..

"ولست أدري كيف أصف لكم شعورى بالارتياح لأن النار قد جلبتها ذلك المصير الفظيع الذي كان ينتظرها على أنياب "المورلوك".. وكان هذا التفكير في حد ذاته كافيًا لإغرائي بالقيام بمذبحة انتقامية، لولا أنني فكرت فيما ينتظرني من مهام ذات خطر.

غشاوة خادعة

"وفي ضوء الفجر، من وسط تلك الرحبة القائمة على ذروة التل، أستطعت أن أرى بوضوح موضع قصر الخزف الأخضر.. وبناء على تحديد موقعي حددت الاتجاه فيه لأصل إلى تمثال أبي الهول حيث تكمن آلة الزمن داخل قاعدته.

"وبدأت السير ببطء نحو غايتى، لأن الأعياء كان شديدًا، ولأن فقد "وينا" بهذه الصورة كان قد نال من معنوياتي.. فهذه الصديقة كانت المؤنس الوحيد لي.. وفقدانها كارثة لا تكاد تحتمل!

"وبينما أنا في طريقي وضعت يدي في جيب بنطلونى على غير هدى.. ووجدت هناك بضعة أعواد من الثقاب لابد أنها تسربت من الصندوق قبل أن يستولى "الورلوك" عليه. وفرحت بها كثيرًا لأنها البقية الباقية من سلاح حضاري، لولاه لما تمكنت من النجاة من شر تلك الجيوش المتوحشة من آكلة لحوم البشر..

"وهأنذا الآن أدرك ما وراء تلك الغشاوة البراقة من جمال ذلك العالم العلوي وجمال أهله للطاف الصغار. ما أشد العناية التي يلقونها، وما ألطف الأيام التي يقضونها!.. إنها شبيهة في كل شيء، بأيام المراح في المراعي التي ينعم بها قطعان الماشية. وهم كالماشية لا يعرفون أن لهم عدوًا يترصدهم،

وأن نيته القائمة تكمن وراء رعاية ساهرة.. والماشية أيضًا ينتظرها مصير هو نصل السكين وصحاف الطعام أو الأسنان التي تنهش بقيم صحفة أو سكين..!

"وفي نحو الساعة الثامنة أو التاسعة، وصلت إلى البقعة التي رأيت منها العالم أمسية وصولي.. وفكرت فيما جال بذهني في تلك الأمسية، ولم أستطع أن أمنع نفسي من ضحكات السخرية بما كان مستوليًا على من الثقة..

"وهأنذا أشرف على ذلك المنظر الجميل بعينه.. لم يتغير فيه شيء من نضار خضرته والتفاف نباته، وعلى مرمى البصر قصوره البواذخ وإطلاله وأبراجه الشوامخ.. والنهر الفضي لم يزل كالعهد به صافيًا رقراقًا ينتاب بين ضفتين تزهوان بنباهما الزاكي..

"والأقوام الصغار "أيلوى" يخطرون ويطفرون بين الأشجار البواسق، والأزهار البواثق، رافلين في أبهى حلل الوشي.. وفريق منهم يستحم في ذلك النهر الذي أنقذت فيه حياة "وينا".. وقد أحسدت لتذكارها وخزة ألم وجيعة، ومن بعد تناثرت تلك القباب النحاسية. ومن تحتها المسالك المؤدية إلى العالم السفلي..

"وأحزنني أن ينتهي إلى هذا المصير حلمنا الضخم بازدهار العقل البشري.. فالعقل البشري قد انتهى بالانتحار خنق نفسه بالاستغراق في الراحة والترف في مجتمع متوازن مكفول الحاجات مأمون الغوائل منتظم

الساعة المضبوطة، فكانت نهاية البشر فيما سمعوا إلى تحقيقه من آمال مزوقة.. وكانت وفاة الذكاء أشبه بمن كوم الأزهار مبالغة في التأنق فخنقت أنفاسه وهو نائم!

"ولقد استطاع الإنسان في فترة من مراحل تاريخه المستقبل أن يؤمن الحياة وضروراتها تأمينًا مطلقًا.. فاطمأن الغني على ثرائه وترفه، واطمأن الكادح على حياته وعمله واختفت في تلك المرحلة بلا ريب مشكلة التعطل، بل لم تعد هناك مشكلة اجتماعية بغير حل.. وأعقبت ذلك فترة هدوء، أخلد فيها البشر إلى مناعم حياتهم المطمئنة.

"إن للطبيعة قانونًا، كثيرًا ما نغفله.. وهو أن ازدهار الذكاء ثمرة الخطر والقلق والكفاح في سبيل البقاء والأمان.. فالحيوان الذي يعيش في تكييف كامل مستقر مع بيئته، لا يعدو أن يكون آلة حية خاملة الذكاء والابتكار..

"فالطبيعة لا تلجأ إلى الذكاء إلا عندما لا تغني في مواجهة الموقف العادية المألوفة والغريزة بطرائقها المعروفة، ولذا فلا ذكاء حيث لا تغير..

"ويختلف نصيب الحيوانات من الذكاء بقدر ما تحتاج إلى مواجهته من منوف الاحتياجات وأنواع المخاطر التي تطرأ على غير انتظار، والمواقف ذات الطرافة والمفاجأة..

"وهاأنذا الآن أرى أهل العالم العلوي قد انحدروا إلى هذا الوهن وتلك الرخاوة بناء على ذلك القانون.. وبناء عليه أيضًا، انحدر أهل العالم السفلي حتى صاروا أشبه بالآلات..

"بيد أنهم بسبب ممارستهم للصناعة المتطورة في آليتهم، احتفظوا بشيء ضئيل من التفكير بنجاوز حدود المادة..

"ولذا بقيت لهم السعادة والسيطرة على أهل العالم العلوي، فلما انقرضت الماشية والحيوانات من وجه الأرض اتخذوا من "الأيلوى" السادة السابقين موردًا لطعامهم.. أو هذا على الأقل هو تفسيري لما رأيته بعيني في ذلك المستقبل السحيق، وعساي أن أكون مخطئًا..

"وبجوار ذلك المقعد المصنوع من المعدن الأصفر، تمددت على العشب تحت أشعة الشمس الدافئة.. واستسلمت النوم استرد به شيئًا من قواي المبددة..

"ولم أستيقظ إلا قبيل الغروب.. فتمطيت وهبطت جانب التل ميمما شطر تمثال أبي الهول الأبيض. وفي إحدى يدي قضيب الحديد، وكنت باليد الأخرى أعبث بأعواد الثقاب في جيبى..

"وكانت في انتظاري مفاجأة لم أتوقعها، فحينما اقتربت من قاعدة التمثال وجدت البوابات النحاسية مفتوحة.. وقد هبطت في جيوب لها داخل الأرض، فوقفت أمام تلك المفاجأة مبهوتًا وترددت كثيرًا في الدخول..

"وكانت أشعة الأصيل تمدنى برؤية واضحة، فرأيت داخل القاعدة حجرة في أحد أركانها منصة، وفوق المنصة آلة الزمن.. وكانت رافعتاها في جيبي..

"وكان الاغراء شديدًا.. فبعد استعدادى الطويل المضني لمحاصرة أبي الهول الأبيض، هاأنذا أجد من "المورلوك" تسليمًا وإذعانًا.. فألقيت بقضيب الحديد بعيدًا، وأنا لا أكاد أخلو من الأسف لأن الظروف لم تتح لي أن استخدمه بما يشفي غليلي!..

"وخطر لي خاطر مفاجيء، وأنا أنحني لأدخل من إحدى البوابات المنخفضة.. فأدركت طريقة تفكير أولئك "المورلوك" وكنت أضحك بصوت مرتفع سخرية من مكرهم الضحل...

"وتقدمت بخطى ثابتة نحو آلة الزمن.. فأدهشني أن أجدها قد نظفت وغذيت لوالبها بالزيت، وأكاد أعتقد أن "المورلوك" فكوا أجزاء منها محاولين الوصول إلى سر تركيبها.

"وبينما أنا أرقب آلة الزمن بفرح وأفحصها، حدث ما توقعته.. إذ أغلقت البوابات فجأة، وانصفقت بصوت مرتفع فوجدت نفسي في الظلام تمامًا.. وقد وقعت في الفخ الذي نصبه لي "المورلوك" أو هكذا خيل إليهم.. فقهقهت ضاحكًا!

"وتبينت في الظلام صوت همهمتهم الضاحكة وهم يتقدمون نحوي.. وبهدوء حاولت أن أشعل عود ثقاب بحكة في الجدران كي أثبت

الرافعتين واختفي بين مسمعهم وبصرهم كالشبح، ولكنني كنت قد أغفلت حقيقة صغيرة وهي أن ذلك الثقاب الذي وجدته في المتحف من النوع الأمين الذي لا يشتعل إلا إذا حككناه في صندوقه"!

"وفي وسعكم أن تتصوروا مدى ارتباكي، وكيف تبخر هدوئي في لمح البصر.. فهاهم أولئك الوحوش عن كثب مني، وها هو أحدهم يتحسسني.. فضربته والرافعة في يدي، ثم ركبت آلة الزمن...

"وأحسست بيد توضع على كتفي.. وتلتها يد ناعمة مثلها على رأسي، وأنا منصرف بيدي إلى تثبيت الرافعتين في موضعهما.. ولكن أحدهم استطاع أن يستخلص إحدى الرافعتين.. فألهمت أن أنطحه في الظلام برأسي فسمعت لجمجمته رنينًا.. وأفلتت أصابعه الرافعة، فكانت تلك المعركة أشد خطرًا من معركة الغابة بالأمس...

"وأخيرًا استقرت الرافعتان في موضعهما وحركتهما.. وبدأت الأيدى تتراجع عني، وأخذ الظلام ينجاب عن عيني.. وسرعان ما وجدت نفسي وسط خليط رمادي يجمع بين الضوء والظلمة على النحو الذي بينته في رحلة الانطلاق من عصرنا..

"وقد حدثتكم أيضًا من قبل عن الغثيان والإضطراب اللذين يكتنفان السفر في الزمن.. وفي هذه المرة كان الأمر أسوأ من المرة الأولى، إذ لم أكن مستويًا في جلستي، بل ركبت حيثما اتفق تحت ضغط الموقف

الحرج، وظللت وقتًا لا أعرف مداه، متشبثًا بالآلة وهي تدور حول نفسها وتهتز ولا أدري أين أتجه؟

"وغاب عني أن أنظر إلى مقاييس السرعة.. فلما ألقيت عليها نظرة، وجدت مؤشر ألوف السنين يجري بسرعة عقرب الثواني في ساعاتكم.. موغلًا في المستقبل في مزيد من المستقبل!

"وعندئذ أدركت إنني كان ينبغي أن أحرك الرافعتين في اتجاه مضاد، ولكني أحببت في الوقت نفسه أن ألقي- قبل تغيير الاتجاه إلى الماضي- نظرة على ذاك المستقبل التالي للعصر الذي عشت فيه بين "المورلوك" و "الإيلوى"..

"وأمعنت النظر.. ولكن السرعة الفائقة جعلت تداخل الضياء والظلمة سريعًا، ولم يكن يخفف منه إلا مروق شهاب أو مذنب في عرض السماء..

"بيد أنني استطعت أن ألاحظ أن الشمس صار قرصها أكثر اتساعًا وأميل إلى الإحمرار.. أما القمر فتلاشى ولم يعد له أثر، ثم أتضح أن الأرض صارت تدور بوجه واحد حول الشمس دون وجهها الآخر، على غرار ما يفعل القمر الآن وهو يدور حول الأرض.

القسم الرابع

العودة إلى الحاضر

نظرة الى المستقبل

"لم أكن اكتفيت بما رأيت من ذلك المستقبل الكوني الموحش.. وبحذر شديد أخذت أعكس اتجاه آلة الزمن عن طريق الرافعتين، وأخذ مؤشر ألوف السنين في الأبطاء إلى أن كفت حركته تمامًا، أما مؤشر الأيام فبدأ يظهر بعد أن كانت سرعة دورانه الفائقة قد جعلته خافيًا عن نظري.. ومع إبطاء مؤشر الأيام أخذ الشاطيء الموحش يرتسم أمامي واعتدلت في مجلسي وألقيت نظرة متفرسية على ما حولي..

"فإذا السماء في ذلك المستقبل الكوني الذي لايحصيه عدد من السنين قد تغير لونها الأزرق، فالأفق الشمالي الشرقي أسود حالك السواد.. تلمع فيه النجوم الشاحبة كأنها الثقوب في ثوب أسود، أما فوق سمت الرأس في كبد السماء، فاللون أحمر قان.. ولا نجوم هناك. وفي الأفق الجنوبي الشرقي كان اللون قرمزيًا وهاجًا، فهناك ما تبقى من كتلة الشمس الضخمة.. وقد استقرت في موضعها شديدة الإحمرار..

"وصخور الشاطيء من حولي لونها أحمر كالح.. ولم آنس أثرًا للحياة كما أعهدها سوى نباتات شديدة الخضرة تكسو الجانب الشرقي من كل نتوء في الأرض أو الصخر.. إنه ذلك اللون الأخضر الذي يرى في طحالب الكهوف أو النباتات المتسلقة في الغابات حيث لا يصل من الضوء إلا أقل القليل..

"وكانت آلة الزمن مستقرة فوق الشاطىء المنحدر والبحر يمتد أمامها إلى الجنوب الغربي وقد خلت من صفحته الموج.. لأنه لم تكن ثمة نسمة واحدة من نسمات الريح، اللهم إلا خفقة كأنفاس النائم بقيت دليلًا على أن البحر لم تزل فيه حركة الحياة..

"وأحسست في رأسي صداعًا اشبه بوطأة الضغط المرتفع.. ثم لاحظت أن تنفسي صار سريعًا للغاية، فذكرت ذلك بحالة من يتسلق جبلًا عاليًا. واستنتجت أن الهواء صار أكثر تخلخلًا مما هو الآن بكثير..

"ومن بعيد فوق قمة ذلك المرتفع، سمعت صرخة ثاقبة.. ورأيت شيئًا أشبه بالفراشة الضخمة البيضاء يحوم في الهواء ويحلق نحو السماء في دوائر كبيرة إلى أن اختفى بين التلال.. وكان الصوت موحشًا، جعلتني أرتجف وأتثبت من موضعي فوق آلة الزمن..

"وألقيت نظرة أخرى حولي.. فتبينت أن كتلة الصخر الحمراء الكالحة القريبة مني أخذت تتحرك ببطء نحوى، ثم إذا بها في الواقع سرطان "أبو جلمبو" ضخم.. أو هو أشبه ما يكون بالسرطان الذي نعرفه حيوانًا مائيًا يخرج إلى الشواطىء.. حجمه أكبر من حجم مائدة كبيرة، وأرجله الكثيرة تتحرك ببطء شديد؛ وقرون استشعاره أشبه بالسياط وهي تتحرك وتتحسس الطريق، وعيناه تتوهجان على جانبي جبهته المعدنية الصلبة، وظهره تتناثر فوقه حلبات ونتوء وقد تزركشت بلطخ خضراء متناثرة هنا وهناك..

"وبينما أنا أحملق في هذا الوحش الزاحف نحوي، شعرت بدغدغة هينة فوق خدي كأنما حلت عليه ذبابة. فحاولت أن أطردها بيدي، ولكنها لم تلبث أن عادت بعد لحظة.. ثم حطت أخت لها في الوقت نفسه فوق أذني.

"وكانت دغدغتها في هذا الموضع الحساس أشد، فضربتها بيدي في غيظ.. وإذا بي أمسك بشيء كالخيط وإذا بالخيط ينسحب على عجل من بين أصابعي فالتفت مذعورًا. وتبينت أنني قبضتها على قرن استشعار سرطان متوحش آخر استقر خلفي تمامًا.. وعيناه جاحظتان في محجريهما، وفمه يتلمظ متحفزًا، ومخالبه الكبيرة مرتفعة في الهواء تنقض نحوي ببطء..

"وفي مثل لمح البصر، كانت يدي على الرافعة.. وفي طرفة عين صار بيني وبين تلك المخالب مقدار شهر على الأقل... ولكني لم أزل على ذلك الشاطيء، فلما أوقفت الآلة رأيت تلك الكائنات المتوحشة مرة أخرى بوضوح، وكنت مرتفعًا عن مستوى الأرض.. فرأيت عشرات منها تروح وتجيء بين خضرة النباتات الداكنة..

"وليس بوسعي أن أصور لكم مبلغ الوحشية الفظيعة التي ترين على العالم في ذلك المستقبل الرهيب، تحت سماء أفقها الشرقي أحمر، ورقعتها الشمالية سوداء.. والبحر شبه ميت يمج الملح على الشواطيء أكداسًا.. والشواطيء لا يعمرها من الكائنات الحية إلا ذلك السرطان الوحشي

الذي يقطر السم من نظراته ومخالبه، ويكاد يقطر السم من خضرة النبات الداكنة.. والهواء هزيل التكوين تتأذى منه رئة الانسان..

"ورحلت بمقدار مائة سنة.. ثم ألقيت النظر فإذا الشمس كما هي حمراء، والبحر على موائه والهواء على تخلخله.. والسرطان الوحشي يملأ وجه الأرض بين العشب الأخضر والصخر الأحمر، فحركت الرافعة وارتحلت حقبة أخرى إلى الوراء، وجعلت أسافر ساعة ثم أقف برهة فتأتي وقفتي على مراحل من ألوف السنين.. ومصير كوكبنا الأرضي يشغل بالي، ويعذبني بتسقط أخباره وتتبع أطواره..

"ورأيت الشمس تستعيد شيئًا من بهائها ووهجها الناصع.. ثم رأيت الحياة تدب على وجه الأرض، وعلى بعد نحو ثلاثين مليون سنة من عصرنا هذا، أبهجهن أن تختفي من وجه الأرض ظلال السرطان المتوحش. وحركت الراقية، وزدت من معدل السرعة.. وقد استبد بي الشوق إلى الحياة كما نعهدها!

* * *

"وهكذا أيها السادة عدت.. ولابد أنني قضيت وقتًا طويلًا مغشيًا على فوق مقعدي بآلة الزمن، فتوالى الليل والنهار بسرعة فائقة مع اشتداد التفاوت بين الضوء والظلام أثر على خلايا أعصابي.. ووجدت نفسي حين أفقت أتنفس بمزيد من الراحة، ورأيت الشمس قد استردت لونها الذهبي وسط سماء زرقاء. ومن حولي ظلال البيوت والشوارع.. ونظرت إلى مؤشر

المسافات، فوجدت رقم الملايين قد انتهى، وعلمت أنني أزحف إلى العصر الراهن.. فأبطأت من سرعة الآلة قليلًا، وبدأت أتبين أنماطًا من العمارة ليست غريبة كل الغرابة..

"وقليلًا قليلًا، اقترب مؤشر السنوات من الصفر وهو نقطة الانطلاق.. وعندئذ تراءت لعيني جدران معملي كما أعهدها، وبحذر وعناية أوقفت الآلة..

"وعاد إلي هدوئي شيئًا فشيئًا.. ورحت أفحص دقائق المعمل، فإذا بها على ما كنت أعهدها.. فداخلني الارتياب وقلت لعلني غفوت وأنا جالس إلى مكتبي، ولا يعدو الأمر كله أن يكون حلمًا رأيته في المنام..

"وهناك مسألة تقطع بأن ما رأيته لم يكن حلم نائم، لأني انطلقت بالآلة من الركن الجنوبي الشرقي لمعملي. وعند الإياب استقرت بي الآلة هذه المرة في الركن الشمالي الغربي، والمسافة بين الركنين هي بالضبط المسافة بين موضع هبوطي في عالم المستقبل على العشب وبين قاعدة تمثال أبي الهول التي خبأ فيها "المورلوك" الآلة ومن هذا الموضع كان انطلاقي في رحلة الإياب...

"وبمعنى آخر، تحول المكان الذي فيه معملي في سنة ٨٠٢٧٠١ إلى موضع بعضه عشب.. وفي الطرف منه تمثال أبي الهول فوق قاعدة من البرونز، فأنا عندما انطلقت من الركن الجنوبي الشرقي وحططت في ذلك المستقبل في نفس موضع انطلاقي، كان الموضع قد تحول إلى خميلة معشبة.

ونقل "المورلوك" آلة الزمن مقدار عشر خطوات داخل قاعدة تمثال أبي الهول، ومن هناك انطلقت راجعًا إلى الحاضر. فحططت في نفس موضع انطلاقي من ذلك الزمن. وكان هذا الموضع لا يبعد إلا الخطوات العشر من نقطة الرحيل الأولى من هنا.. أي من الزمن الحاضر، وذلك الموضع هو الركن الشمالي الغربي من المعمل..

"وظل ذهني راكدًا كالماء الآن برهة من الوقت، وأنا بين الشك واليقين.. ثم نهضت وجئت مخترق هذا الدهليز، وأنا أعرج لأن عقبي لم يزل يؤلمني. وفيه ورم خفيف من السير الجهد والمسمار الذي اخترق النعل البالي..

"ورأيت على مائدة في الدهليز بجوار الباب العدد الأخير من مجلة "بول مول" فنظرت في تاريخ صدوره فإذا به تاريخ اليوم، ونظرت إلى ساعة الحائط، فإذا بها تشير إلى قرب الساعة الثامنة.. وسمعت أصواتكم وصليل الصحاف..

"وخطر لي لأول وهلة أن أدخل.. ثم ترددت لأني كنت أشعر بدوار وغثيان وإعياء شديد، ولكن أنفى حسم الأمر نيابة عني.. لأن رائحة الشواء الجيد نفذت إلى خياشيمي، ففتحنا عليكم الباب.. وأنتم تعلمون بقية القصة، وكيف اغتسلت ثم جئت فتعشيت.. وهاأنذا أخبركم الآن بقصتي.

حصيلة الرحلة

واستطرد رحالة الزمن قائلًا:

"وإني لا علم أن ذلك سيقع منكم موقع الإنكار، وأنكم لن تصدقوا شيئًا مما رويته لكم عن تلك الأسفار.. أما أنا فالذي يعز علي تصديقه شي واحد هو أني موجود هذه الليلة في هذه الحجرة المعهودة، أنظر إلى وجوهكم المشرقة بالمودة وأقص على مسامعكم تلك المغامرات العجيبة..

ووجه رحالة الزمن نظراته إلى رجل الطب، ثم قال له:

– كلا!.. ليس في وسعي أن أتوقع منك التصديق لما قلت.. فخذه إن شئت على محمل الأكذوبة.. وإن شئت أيضًا على محمل النبوءة، وقل لنفسك إن هذا كله إن هو إلا حلم حلمته وأنا في معملي.. أو قل إنني كنت أفكر في مصائر جنسنا البشري وكوكبنا الأرضي ونظامنا الشمسي. وظللت ماشيًا مع التفكير والتقدير إلى أن أفرخت هذه القصة، ولك أن تعتبر إصراري على صدق ما قلت، بمثابة قالب فني أقدم فيه لكم مضمون فكرتي بطريقة طريفة مشوقة باعثة على الاهتمام، ولكن. ما رأيك فيما رويته كقصة؟..

وتناول بعد ذلك غليونه، وشرع على قديم عادته يدق به سياج المدفأة المعدني بحركة عصبية. وساد الصمت التام برهة من الوقت، ثم

بدأت الكراسي تتحرك والأحذية تحتك بالبساط.. فرفعت عيني عن وجه رحالة الزمن، وأجلت طرفي في وجوه الحاضرين. وكانوا جالسين في الظل.. ورجل الطب يبدو مستغرقًا تمام الاستغراق في تفحص مضيفنا رحالة الزمان..

أما رئيس التحرير، فكان يثبت نظراته الثانية على طرف سيجاره.. وهو سيجاره السادس في تلك الجلسة وأما المخبر الصحفي، فكان يفتش في جيبه عن ساعته.. والباقون فيما أذكر كانوا ساكنين عن كل حركة وكل تعبير..

وأخيرًا نهض رئيس التحرير واقفًا وهو يتنهد ثم قال، رافعًا يده فوق كتف رحالة الزمن:

– من المؤسف أنك لا تحترف كتابة القصص!

– ألا تصدق ما قلت؟

"وابتسم رئيس التحرير ابتسامة ذات مغزى ولم يجب.. فقال الرحالة وهو يلتفت إلينا:

– هذا ما كنت أنتظره.. ولكن أين الثقاب؟ إنى في الحقيقة أكاد لا أصدق نفسي.. ومع ذلك..

وأعطاه أحدنا صندوق الكتاب، فأشعل غليونه ثم ألقى نظرة تساؤل غامض على الأزهار الذابلة التي أخرجها عند وصوله من جيبه، وقال إنها

من أزهار المستقبل. ثم قلب يده التي يمسك بها الغليون، وأخذ ينظر إلى ندوب كادت تلتئم عند مفاصل أصابعه.. المفروض أنها من آثار معارك تلك الرحلة في المستقبل.

ونهض الطبيب ووقف تحت المصباح يفحص الأزهار ثم أظهر عجبه من غرابة تكوينها.. وانضم إليه العالم النفساني في الفحص، ثم وقف المخبر الصحفي وقال:

– إن الساعة تقترب من الواحدة صباحًا.. فكيف نصل إلى بيوتنا؟

فقال له العالم النفسانى إن عربات الأجرة كثيرة عند المحطة.. وهز الطبيب رأسه ثم قال:

– إني عاجز تمامًا عن معرفة النظام الطبيعي لهذه الأزهار.. فهل تسمح لي بها؟

وظهر التردد على رحالة الزمن، ثم هتف فجأة مظهرًا اعتراضه على خروجها من حوزته.. فسأله الطبيب:

– أين حصلت على هذه الازهار حقيقة؟

فرفع رحالة الزمن يده إلى رأسه، وتكلم بطريقة من يجتهد في التمسك بفكرة تراوغه وتتملص فعلته منه، قائلًا:

– وضعتها في جيبي "وينا" وأنا مسافر في المستقبل.. إن منظركم ومنظر الحجرة يكاد يطير صواي. فهذا المنظر متصل بماضي حياتي كله،

ويتحالف مع ذاكرتي متآمرًا ضد فترة رحلتي في الزمن.. فهل صنعت حقيقة آلة الزمن، أم ما صنعه هو مجرد نموذج لها؟. إنهم يقولون أن الحياة حلم، بل وحلم هزيل في بعض الأوقات. ولكن ليس في وسعي أن أتحمل في داخل هذا الحلم حلمًا يناقضه ولا يأتلف معه، لأن هذا هو الجنون بعينه. ولكن من أين جاء هذا الحلم العجيب؟

يجب أن ألقى الأن نظرة أخرى على تلك الآلة.. إن كان ثمة آلة!

"ووثب واقفًا، فأمسك بالمصباح الموضوع على المائدة، وحمله بسرعة وقد اشتد احتقان وجهه.. ثم اخترق الباب المفضي إلى الدهليز.. ونهضنا كلنا على أثره..

وهناك.. في ضوء المصباح المترنح رأينا الآلة قائمة لاشك في أمر وجودها وهي ذات منظر قبيح.. بعض أجزائها من النحاس الأصفر، والبعض الآخر من خشب الأبنوس الأسود.. وفيها قطع من العاج ومن الكوارتز اللامع...

وكأنما لم أصدق عيني.. فمددت يدي وجعلت أتلمسها فلم تكن وهمًا.. فهي صلبة الملمس. وتحققت من وجود لطخ بنية اللون أشبه بالطين على بعض أجزائها. وكان في العاج خدش يدل على الاحتكاك.. وأما الأجزاء السفلية فكانت عالقة بها أجزاء من العشب الاخضر والطحالب. وأحد القضبان كان ملتويًا من أثر الارتطام بشيء..

ووضع رحالة الزمن المسباح فوق مكتبه، ثم تحسس بيده ذلك القضيب الملتوي.. مر عليه من أوله إلى آخره في تؤدة، ثم انتصب قائمًا وقال لنا وقد زال من صوته ونظراته كل أثر الحيرة والتردد:

– الآن وضح كل شيء أيها السادة، وإني آسف لأني أتيت بكم إلى هذه القاعة الخالية من التدفئة

ثم تناول الصباح.. وفي سكون تام عدنا جميعًا إلى قاعة التدخين.

وبعد قليل صحينا إلى البهو الخارجي ليودعنا... وأعان رئيس التحرير على ارتداء معطفه. ونظر الطبيب في وجه الرحالة نظرة فاحصة، ثم قال بعد شيء من التردد:

– إنك مرهق من الإسراف في العمل والسير والتفكير..

فضحك الرحالة ضحكة مجلجلة، إعراًبا عن عدم اكتراثه.. وإني لأذكر تمامًا منظره وهو واقف على عتبة باب داره من الخارج يلوح لنا بيده ويتمنى لنا ليلة سعيدة..

وركبت عربة أجرة شاركني فيها رئيس التحرير.. وكان رأيه الصريح أن القصة كلها "كذب في كذب" أما أنا فكنت في الحقيقة عاجزًا عن القطع برأى، فهنالك أشياء كثيرة في لهجته وطريقة روايته توحي بالصدق. وكيف أنسى شدة لهفته وهو يلتفت بقلق ليسألنا عن صندوق الثقاب وهو يريد أن يشعل غليونه؟ إنها لهفة إنسان مر بتجربة قاسية، كان عود الثقاب

فيها ذا أهمية بالغة الخطورة! وقد يكون فيصلًا بين الحياة والموت. وليس في ظروف معيشتنا اليومية في هذا العصر ما يبرر أدنى تبرير تلك اللهفة العميقة!

إن القصة بلا شك أغرب من كل خيال.. ولكن أسلوب سردها خال من المبالغة، وفيه ما يوحي بالصدق وليس فيه شيء يشعر بالتزييف.

زهرتان ذابلتان

وفي داري، وعلى فراشي، رقدت معظم الليل مفتوح العينين أنكر فيها سمعته تلك الليلة من ذلك الصديق العالم غريب الأطوار. ولم يطمئن خاطرى حتى قطعت على نفسي عهدًا بأن أزوره في اليوم التالي لألقي نظرة أخرى على آلة الزمن، واجتمع بصديقى رحالة الزمن لاستوضحه.. ولعل المقابلة تحسم ما أعانيه من بلبلة..

وفي اليوم التالي، ذهبت لزيارته فعلًا.. فقيل لي أنه في معمله. لما كنت ممن يترددون على الدار بغير كلفة، فقد تركونى أمضي إليه هناك.. ولكني وجدت المعمل خاليًا، وجلست أنتظره قليلًا وأنا أحملق في آلة الزمن، ثم اتجهت نحوها ومددت يدي فلمست إحدى روافعها.. وإذا بهذه الكتلة الضخمة الثقيلة من الآلات والاجهزة ترتجف كأنها غصن صغير في مهب ريح عاتية.

وأزعجني ما حدث جدًا، لأنه ذكرني على الفور بتحذيرات أمي وأنا صغير من مد يدي إلى شيء مجهول لا شأن لي به. وخرجت مسرعًا إلى الدهليز، فالتقيت برحالة الزمن وجهًا لوجه في قاعة التدخين.. وكان قادمًا من جهة حجرات البيت..

ورأيت في يده آلة تصوير صغيرة.. وتحت أبطه حقيبة شبيهة بحقائب الجنود. فلما رآني أشرق وجهه بالضحك؛ وقال:

– إني كما ترى مشغول جدًا...

– بم؟...

– بذلك الشيء اللعين الموجود في معملي..

فضحكت وقلت:

– تعني اختراعك العجيب.. آلة الزمن؟

– طبعًا...

فنظرت إليه مليًا، وقلت بجد:

– تعني أن المسألة ليست من أولها إلى آخرها نوعًا من المزاح؟

– إطلاقًا!

– هل تريد أن تقول أنك حقًا ترحل وتجوب آفاق الزمن؟

فثبت عينيه في عيني بنظرة مريحة وقال:

– إني حقًا وصدقًا أجوب آفاق الزمن..

ثم ظهر عليه التردد قليلًا، وأجال عينيه في أرجاء قاعة التدخين وقال:

– استميحك في نصف ساعة فقط.

– لا تقيد نفسك بي.. إني كنت على وشك الإنصراف.

– اوه.. كلا... أنا أعرف السبب الذي حدا بك إلى الحضور..

– حقًا!..

– ومعنى هذا أنك تريد أن تصدقني وتأخذ الصدق مأخذ الإمكان، ولا تلقي بالقصة كلها في معرض الطريق.. إنك تطلب دليلًا يساعدك على تصديقي لأنك راغب في ذلك التصديق. وهذا كرم عظيم منك.. وعندي هنا عدد من المجلات، تستطيع أن تقضي الوقت في تصفحها.. فلو إنك تكرمت بالبقاء لتناول الغداء معي لأتحت لي أن أقدم لك الدليل الدامغ على ذلك السفر في الزمن، مدعمًا بأسانيد من نماذج النباتات والعيون الشمسية.. وربما بأسانيد من نماذج من الكائنات الحية، فقد آتيك بأحد "الإيلوى"، من فصيلة "رينا" فهل لك أن تأذن لي الآن في مغادرتك؟

واعترف أنني لم أفهم المغزى الكامل لكلماته، كأنما كنت واقعًا تحت تأثير مغناطيسي من حماسته.. فقد وافقت على البقاء. وأومأ لي الرحالة برأسه، ثم اجتاز الدهليز متجهًا إلى معمله..

سمحت باب العمل وهو يصفق.. فاخترت مقعدًا وثيرًا من مقاعد التدخين وجلست فيه، ثم تناولت إحدى الصحف اليومية الكثيرة وأنا أقول لنفسي:

– ترى ما الذي ينوي أن يفعله هذا الرجل في الفترة السابقة على موعد الغداء؟..

وفيما أنا أقلب الصحيفة في يدي، وقع نظري على إعلان عن إحدى دور النشر.. فذكرني ذلك على الفور بوعد ارتبطت به أن اذهب لمقابلة الناشر "ريتشاردسون" في مكتبه في تمام الساعة الثانية.. فنظرت في ساعتي، وأدركت أني يجب أن أنصرف على الفور لأصل في الموعد المذكور، فلا يمكنني أن أبقى لتناول الغداء.

وفي الحال نهضت واخترقت الدهليز كي أخبر رحالة الزمن بالتغيير الذي طرأ على خطتي..

وما إن وضعت يدي على مقبض باب العمل حتى سمعت صيحة تعجب.. وكأنما خنق هذه الصيحة عن الاسترسال شيء، وسمعت حركة احتكاك معدن بمعدن.. واهتزت الارض قليلًا، ولفتني دوامة من الهواء وأنا أفتح الباب.. وهبت من الداخل أصوات تحطم الزجاج من إثر ارتجاج الأرض والبناء. وتناثر حطام الزجاج على الأرض.. ولكن رحالة الزمان لم يكن موجودًا بالداخل.

وخيل إلي أني أرى شكلًا غير واضح، وكأنه شبح فوق قمة كتلة من النحاس والمعدن الأسود تدور في الهواء بسرعة. وكان الشكل في مجموعه شفافًا، بحيث أن المكتب وما عليه من أوراق ورسوم كان ظاهرًا لعيني بوضوح من خلال تلك الصورة.. فجعلت أفرك عيني بأصابعي لأتحقق مما

أرى، بيد أن هذه الصورة الشبحية تلاشت عند انتهائي من فرك عيني وإذا بآلة الزمان قد اختفت!

ودققت النظر في موضعها حيث رأيتها عند حضوري منذ دقائق.. فلم أجد في ذلك الركن من المعمل شيئًا سوى دوامة من الغبار توشك أن تهدأ، ومن فوقها مربع كبير من زجاج نافذة السقف، وقد تحطم وانتابتني دهشة لا يتصورها العقل.. وأدركت، أن شيئًا عجيبًا للغاية قد حدث، ولكني لم أستطع التكهن بماهية ذلك الشيء..

وفيما أنا واقف أحملق مبهوتًا، فتح باب العمل المفضي إلى الحديقة ودخل الخادم.. ونظر كل منا إلى الآخر. ثم ثاب إلى شيء من الرشد فسألته:

– هل خرج السيد من هذا الطريق؟..

– كلا ياسيدى.. لم يخرج من هذا الطريق.

وكنت قادمًا إلى هنا لأتحدث إلى السيد في أمر ما..

وعندئذ أدركت أن صديقي انطلق في رحلته الثانية، وقررت المجازفة بسخط الناشر "ريتشارد سبون" وعولت على انتظار عودة رحالة الزمن، مزودًا هذه المرة بالنماذج والصور الفوتغرافية، ولكني أخشى أن انتظاري سيطول إلى نهاية العمر، لأن اختفاء رحالة الزمن دام حتى الآن ثلاث سنين!

* * *

وليس في وسع الإنسان ألا أن يعجب ويتساءل:

– أتراه سيعود يومًا؟

لعله في هذه المرة اقتحم الماضي.. ووقع بين براثن أجدادنا المتوحشين في العصر الحجري.. فأكلوه، أو أمن في الماضي فتلقفته الحيوانات المنقرضة من طبقة الدناصور.. أو لعله رحل إلى مستقبل قريب يبعد عنا ألفًا أو ألفين من السنين، فوجد البشر ما يزالون هم البشر.. ولكن مشكلاتنا جميعًا وجدت حلها الموفق عندهم، فآثر البقاء على العودة..!

لقد كان هذا على الأقل هو إيمان صديقي، فقد كان مسرفًا في التفاؤل بالعلم والحضارة إلى حد التشاؤم المطلق.. كان يرى أن الحضارة ستصل إلى مداها من التنظيم العلمي بحيث تنقلب بفعل الترف والراحة والاستقرار إلى الانحلال والاضمحلال.. أما أنا فالمستقبل في نظري مظلم لا يحصل فيه البشر على شيء من النور إلا بالجهد الجهيد، ولا يتغلبون على مشكلة إلا وتنجم مشكلة أخرى تحتاج إلى علاج..

إن قصة صديقي لا تلقي من الضوء على غياب المستقبل إلا شعاعًا ضئيلًا جدًا.. وكل ما بقي عندى من دليل على هذا الشعاع يريح بالي، ويحد من طغيان الشك في صدقه زهرتان غريبتان بيضاوان.. أو هكذا كانتا، فهما الآن شيء جاف داكن اللون.

ولست أنسى، حين أذكر هاتين الزهرتين، تذكارًا أبقى منهما وأقوى على مقابلة الذبول والجفاف، هو الإحساس الذي يملأ قلبي بالامتنان والرقة الشديدة لذلك الإنسان الذي تغلب فيه حب المعرفة وحب البشريه على حب الراحة الشخصية وحب البقاء.

الفهرس